

الإمام الجليل
محمد أبو زهرة

﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ عجب نبى الله فقال: أَنَّى لك هذا؟ أى من أين لك هذا؟ فإن أَنَّى تكون بمعنى كيف، كما قال تعالى: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ... ﴿٢٢٣﴾﴾ [البقرة] وتكون بمعنى من أين، وهى هنا كذلك؛ عجب نبى الله من هذا الرزق، وما كان العجب إلا لأنه لا يعرف سببه، ولو كان يعرف أنها هبات تأتيها ما ثار عجبه، ولقد كانت إجابتها إجابة الربانيين الأبرار؛ ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾. أكدت أنه رزق الله، ولذلك أتت بالضمير، ثم أكدت ذلك بما يزيل العجب، فقالت: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أى أن رزق الله كثير غير محدود بحد، ولا مقدر بقدر؛ ولذا لا يحده الحساب، ولا تجرى عليه الأعداد التى تنتهى. ويصح أن تكون هذه الجملة السامية من كلام الله تعالى لتقرير ما قالت، وبيان أن الله أجرى عليها الرزق لينمو جسمها مع نمو روحها، ويتم لها الإنبات الحسن فى الجسم والروح معا، والله سبحانه وتعالى على كل شىء قدير.

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾

فى الآيات السابقة ذكر سبحانه قصة ولادة مريم، وفى هذه الآيات يقص ولادة يحيى، وإن ولادة مريم كانت ذات صلة وثيقة بولادة يحيى عليه السلام، وإنها تتجه نحو خوارق العادات أكثر من ولادة مريم وحالها. فالقصص الأربع تتدرج فى خوارق العادات، تبتدئ بالقريب من المألوف ثم تنتهى بخوارق لم يكن للناس بها عهد من قبل.

وانتهينا فى قصة مريم البتول إلى أن نبى الله زكريا كفلها، وأنها تربت منذ صغرها فى المسجد، بيت الله المقدس، وأن الله أفاض عليها بالخير والنعم الظاهرة والباطنة، فملأ قلبها إيمانا وروحانية، وغذاها بلبان المعرفة، وبغذاء مادى طيب.

ولقد كان زكريا، ومريم تدرج فى مدارج الصبا، شيخا هرما يئس من الولاد، ولكنه عندما رأى مريم وتنشئتها على الإيمان والمعرفة ومحبة من الله تعالى، ورآها ترزق بغير حساب، ورأى منها مع صغر السن نجابة وتفويضا وإيمانا راسخا، حنَّ إلى الولد حنينا، ورغب فى الذرية، وكان بين حالين متناقضتين: حال تلك الرغبة وعدم اليأس من رحمة الله القادر على كل شىء، وحال الكبر الذى أصابه، والشيخوخة الفانية التى هو فيها؛ ولكنه قد تحرك فيه عامل الرغبة عندما تكلم مع مريم فى المحراب يسائلها عما عندها من رزق كلما دخل عليها، ؛ ولذا قال سبحانه وتعالى فى قصته.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ ففى هذه الحال التى رأى فيها مريم تغلب فيه جانب الرجاء على جانب اليأس، ولذا قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ أى فى هذا المكان وهو المحراب الذى كان يلتقى فيه بمريم الفينة بعد الفينة، ويسائلها فيه، وتتكلم بلسان البر والتقوى، تحركت غريزة الأبوة فى ذلك المكان المقدس، فدعا ربه. والتعبير بدعا ربه إشارة إلى شعوره بقدرة الله تعالى على كل شىء، إذ هو ربه الذى ذرأه ونماه صغيرا، حتى بلغ أشده ثم تولاه حتى بلغ من الكبر عتيا، فقد اتجه إذن فى دعائه إلى الرب القادر العليم الذى أبدع كل شىء على غير مثال سبق، قال: ﴿رَبِّ﴾ أى

خالقى الذى خلقنى، وخلق كل شىء من طين، وصدر عنه كل ما فى الوجود بإرادته العالية: ﴿هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ﴾ أى أعطنى أنت عطاء كريما لا سبب له إلا إرادتك، ولا باعث عليه إلا رحمتك، فلا يكون الأمر فيه جاريا على مقتضى الأسباب ومسبباتها، إنما يكون على مقتضى الهبة المجردة، والعطاء الخالص الذى لا سبب له إلا إرادتك الأزلية وإلا رحمتك: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ أى من عندك؛ أى السبب يكون من عندك لا من عندى؛ لأن الأسباب عندى قد زالت، ولم يعد إلا سبب منك، وإلا معجزة تكون فيها المانح المعطى من غير أى علة أو ترتيب. والتعبير بـ ﴿لَّدُنكَ﴾ التى لا تكاد تستعمل فى القرآن إلا فى جانب الله تعالى يفيد العندية العالية السامية، لا العندية القريبة المقارنة، ولا العندية المقاربة.

ودعاء نبى الله أن يهب له ذرية طيبة، فلم يذكر الله سبحانه عنه فى هذه الآية سوى أنه يطلب ذرية طيبة، والذرية قد بينا معناها من قبل. والطيبة: هى الذرية الحسنة المرغوب فيها التى تكون ذات أثر طيب؛ لأن الطيب هو الأمر الحسن المحبوب المرغوب فيه الذى لا ينتج إلا خيرا، ويأتى بخير الثمرات وأحسن النتائج؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا ... ﴿٥٨﴾﴾ [الأعراف].

وبعد أن ضرع هذه الضراعة بدأ رجاؤه فى الإجابة بقوله: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ أى إنك تعلم بدعائى علم من يسمع، وإن الأمر إليك إذ علمته وسمعته؛ فإن أجبت فبرحمتك، وإن لم تجب فبحكمتك، فأنت العليم الحكيم، والرحمن الرحيم. والصيغة تفيد قرب الرجاء وإمكان الإجابة.

وفى هذه السورة لم يبين سبحانه شكل الدعاء أكان جهرا أم كان خفيا، وفى سورة مريم بين حاله، وبين نوع ما يطلب من الذرية، فقال سبحانه: ﴿كهيعص ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي

خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾ [مريم] .

وفى هذا النص الكريم يتبين أنه مع رجائه كان يذكر شيخوخته الفانية، وكون امرأته عاقرا لا تلد، ومع ذلك تغلب عليه جانب الرجاء، فدعا ذلك الدعاء، وضرع إلى الله تعالى تلك الضراعة، وقد أجاب الله تعالى دعاءه فور طلبه؛ ولذا قال سبحانه:

﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ ﴾ والتعبير بـ «الفاء» يفيد أن النداء كان فى زمن قريب من الدعاء. وهنا ثلاث نقط نريد أن نوضحها بعض التوضيح:

أولاها: فى النداء ونسبته إلى الملائكة، فهل خاطبه بهذا عدد منهم؟ لقد أجاب المفسرون عن ذلك بجوابين؛ أحدهما: أن الذى ناداه هو جبريل الذى ينزل بالوحى على النبيين، ولقد قال فى ذلك التفسير ابن جرير الطبرى «يقال خرج فلان على بغال البريد، وإنما ركب بغلا واحدا، وركب السفن، وإنما ركب سفينة واحدة، وكما يقال: ممن سمعت هذا؟ فيقال: من الناس، وإنما سمعه من رجل واحد، وقد قيل إن منه ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ... ﴿١٧٣﴾ ﴾ [آل عمران] والقائل فيما ذكروا كان واحدا».

هذا توجيه من قال إن المراد جبريل. وفى ذكر الملائكة بالجمع إشارة إلى الجنس، أى أن الله سبحانه كان من رحمته به أن أجاب دعاءه، وسارع بتبشيره بإجابته، وكانت الإجابة بملائكته، وإن كان المبلغ واحدا.

وأما التخريج الثانى: فهو أن المراد الجمع من الملائكة؛ لأن من كمال عناية الله تعالى بعباده أن ألقى إليه بالبشرى عدد كبير من الملائكة لا واحد منهم، وهذا ما رجحه ابن جرير؛ ولذا قال: «والصواب من القول فى تأويله أن يقال إن الله جل ثناؤه. أخبر أن الملائكة نادته، والظاهر من ذلك أنها جماعة الملائكة دون الواحد، وجبريل واحد، فلا يجوز أن يحمل تأويل القرآن إلا على الأظهر الأكثر

من الكلام المستعمل فى ألسن العرب دون الأقل، ما وجد إلى ذلك سبيل، ولم تضطرنا حاجة إلى صرف ذلك إلى أنه بمعنى واحد، فيحتاج له إلى طلب المخرج بالخفى من الكلام والمعانى» ولا شك أن العدد فيه مبالغة بالتبشير، وكأن حال هذا النبى الكريم فى يأسه من الولد لشيخوخته الفانية وكون امرأته عاقرا وعجوزا، كان يحتاج فيها إلى عدد من المبشرين ليزول من نفسه كل يأس، ويحل محله الرجاء.

النقطة الثانية: أن النداء الذى وجهته الملائكة كان وهو قائم يصلى فى المحراب، فهو فى وقت مواجهته لربه، ومناجاته لخالقه، وإنه بابتداء القول بالفاء الدالة على التعقيب من غير تراخ، وكون خطاب زكريا لمريم كان وهو فى المحراب، وأن الدعاء كان وهو فى المحراب، يتبين أن إجابة الدعاء كانت فور الدعاء، فهو قد ضرع إلى الله خالص النية، طاهر النفس والحس فأجاب الله دعاءه على سنته فى إجابة المهديين من خلقه دعاءهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر].

النقطة الثالثة: فى قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ وهنا قراءتان فى أن، إحداهما بالكسر على تضمين النداء معنى القول، أى فنادته الملائكة قائلين إن الله يبشرك بيحيى، والفتح على أن الباء محذوفة والتقدير فنادته الملائكة بأن الله يبشرك بيحيى، واقتران التبشير بالتسمية بيحيى للإشارة إلى أن ذلك المولود سيحيى اسمه وذكره بعد موته، وبذلك تتحقق الإجابة الكاملة للدعاء، إذ قال كما فى سورة مريم ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم].

وقد أجاب المولى القدير كل دعاء زكريا، فكان المبشر به رضيا فى خلقه ودينه؛ ولذا قال سبحانه فى وصفه:

﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ وصفه الله سبحانه وتعالى بصفات أربع كلها بجعل من الله وتكوينه وخلقه: وأولى هذه الأوصاف:

أنه كان مصدقا بكلمة من الله، وتصديقه بكلمة من الله اختلف المفسرون فى تحرير معناها، لاختلافهم فى معنى: «كلمة»، فمنهم من اتجه إلى أن كلمة الله هو المسيح عيسى بن مريم، ما قال تعالى من بعد ذلك لمريم: ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ... ﴿٤٥﴾﴾ [آل عمران] ويكون المدح فى يحيى حينئذ بأنه صدق عيسى وأذعن للحق إذ تبين له، فلم يكن من المعاندين الذين يجحدون بآيات الله تعالى، ويكفرون ببيناته، وسمى عيسى «كلمة من الله» من الله؛ لأنه نشأ بكلمة منه سبحانه، ومن المفسرين من قال إن المراد من كلمة الله تعالى كتابُه؛ وذلك لأنه تطلق الكلمة ويراد منها الكلام، وذلك من هذا القبيل، والظاهر عندى هو الأول؛ لأنه فى هذا المقام ذكرت كلمة الله على أنها المسيح عليه السلام، والاسم المكرر فى مقام واحد تكون فيه وحدة المقام دليلا على وحدة المسمى. وكان فى هذا التعبير إيذان بأن ولادة المسيح ستكون قريبا من ولادة يحيى وفيه إيماء إلى أن زكريا نبى الله قد أوتى علما بأن المسيح عهده قريب.

والوصف الثانى من أوصاف يحيى: أنه سيد، والسيد فيْعل من السيادة، وهى الشرف والتفوق والعلو، وتبتدئ السيادة بسيادة الإنسان على نفسه بأن يملك زمامها، ويضبطها ويأخذ بعنانها، فلا تذل، ولا تتكبر ولا تجمح، ولا يزال يترقى فى معنى السيادة من ضبط النفس والعلو عن سفساف الأمور، والاستغناء عما فى أيدى الناس حتى يفوق الناس. وإنه يروى أن أعرابيا مر بالبصرة، فسأل من سيد هذا المصر؟ فقيل له: الحسن البصرى فقال: وبم ساده؟ قيل استغنى عما فى أيدى الناس، واحتاج الناس إلى ما فى يده، فقال: ذلك هو السيد حقا.

فكلمة السيد فى النص القرآنى الكريم تتضمن كل معانى السؤدد ومكارم الأخلاق.

والوصف الثالث: أنه حصور. وأصل الحصر معناه الحبس، والمراد أنه حبس نفسه عن الشهوات، حتى لقد روى أنه امتنع عن النساء زهادة واستعفافا، واتجاها إلى الروحانية. وقيل إنه كان لا يأتى النساء عجزا، وذلك غير صحيح، والحق أنه

إن كان قد امتنع عن النساء فعن قدرة واختيار لا عن عجز؛ وذلك لأن الله سبحانه وتعالى ساق ذلك الوصف فى مقام المدح والثناء، ولا يتحقق معنى المدح والثناء إلا إذا كان فيه اختيار، ولم يكن عجزا وجبرا. ولأن «حصور» صيغة مبالغة لحاصر، أى أنه يبالغ فى منع نفسه من الشهوات .

وليس فى النص ما يدل على أنه امتنع عن النساء بخاصة، بل النص يدل على أنه حبس نفسه عن الشهوات، وقدعها عن أهوائها.

الوصف الرابع: أنه نبى من الصالحين، وفى هذا بشارة أخرى لزكريا بأن الله سيختار ابنه نبيا؛ فإن الأوصاف السابقة فيها إجابة لدعائه، ولكن الله سبحانه وتعالى مَنَّ عليه بأعظم مما دعا به، وأعطاه النبوة وقوله ﴿مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ إشارة إلى موطن النبوة. وموضع اختيارها، والله سبحانه وتعالى أعلم حيث يجعل رسالته، وهو سبحانه وتعالى لا يختارهم إلا من الصالحين، فالله سبحانه يقيهم الانغماس فى الشر قبل النبوة، ويعصمهم عن المعاصى بعدها.

استمع زكريا إلى تلك البشارة الإلهية، فاعتراه العجب، لما كان يتنازعه من عامل الرجاء وعامل اليأس، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾.

﴿أَنَّى﴾ هنا بمعنى «كيف»، فهو يعجب من الحال، ولا يصح أن تكون بمعنى «من أين» لأن الله سبحانه وتعالى أخبر أنه سيعطيه الولد، فلا يليق أن يسأل من أين، إنما العجب من حال العطاء مع حاله هو وامرأته؛ ولذا كانت الجملة من بعد ذلك جملة حالية صُدِّرت بواو الحال، فقال: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ كان وجه العجب من ناحيتين: الناحية الأولى: أنه شيخ فانٍ قد أصابه الكبر بما فيه من ضعف، والثانية أن امرأته عاقر لا تلد، والعقر يوصف به الرجل والمرأة، فيقال رجل عاقر، وامرأة عاقر أى بينة العقر، والعقر مصدر عَقَرَ يعقر عُقْرا ويظهر أن امرأته مع شيخوختها كانت عقيما لا تلد، فكان العجب إذن من ثلاث نواح: شيخوختهما، وعقرها. وقد عبر عن شيخوخته بقوله : ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ ولم

يقل قد بلغت الكبر وهو الظاهر، ولكنه عدل هنا للإشارة إلى أن الكبر قد أصابه بضعفه وما فيه من آلام وأسقام وضعف. ويقول فى ذلك الزمخشرى: (وقد بلغنى الكبر كقولهم أدركته السن العالية، والمعنى أثر فىَّ الكبر فأضعفنى) وعلى ذلك يكون قوله تعالى: ﴿بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ يتضمن بلوغ الشيخوخة، وأنها أوجدت فيه ضعفا وعجزا، ويكون هذا فى معنى قوله تعالى فى سورة مريم حكاية عن زكريا: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾﴾ [مريم].

وقد أجابه سبحانه وتعالى بما يزيل عجبه، ويمنع حيرته؛ وذلك بأن بين أن الله تعالى فوق السنن الكونية وفوق الأسباب فى الخلق؛ لأنه خالق الأسباب؛ فقال تعالى:

﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ أى مثل ذلك الذى رأيته من أن يكون لك وأنت شيخ وامرأتك عاقر، يفعل الله تعالى ما يشاء، أى أن الله سبحانه يفعل بمشيئته واختياره غير مقيد بالأسباب والمسببات والعادات وأحوال الناس؛ لأنه سبحانه وتعالى خالق الناس، وخالق الأسباب، وخالق مجارى العادات التى تجرى بينهم. فالإجابة لا تتضمن فقط إزالة تعجب زكريا عليه السلام بل تتضمن مع ذلك تقرير قضية عامة، وهو أن الله يفعل ما يفعل باختياره وإرادته غير مقيد بأى قيد إنه سبحانه فعال لما يريد.

ولماذا كان ذلك الخارق، وما يجىء بعده؟ الجواب عن ذلك: أن هذا لأن بنى إسرائيل كانوا لا يؤمنون إلا بالجسد، إذ كانوا يفسرون كل شىء تفسيرا ماديا، وقد سادت عندهم الفلسفة المادية، وكثر بينهم القول بأن الأشياء تنشأ عن العقل الأول نشأة المسبب عن السبب أو المعلول عن علته، فكان لابد من صادع يقرع حسهم بحادث من هذا الصنف الذى تتخلف فيه فلسفتهم، فيوجد المسبب من غير سبب فيدل هذا على أن المنشئ فاعله مختار يفعل ما يريد، وهو اللطيف الخبير؛ ولذا قال سبحانه ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾.

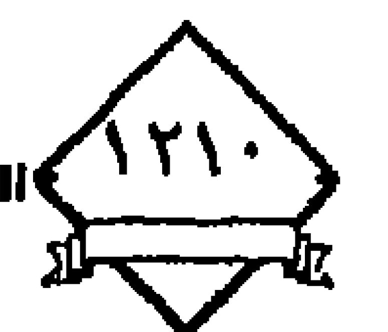
ولقد أراد نبى الله زكريا أن يعلم الوقت الذى تبتدئ فيه هذه البشارة أن تتحقق، وأن تقوم آية تدل على الحمل كما يقول بعض المفسرين فقال كما حكى الله عنه: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا﴾:

فى تفسير هذا النص الكريم اتجاهان:

أولهما: أن سيدنا زكريا عليه السلام طلب علامة تدل على موعد الحمل، فقال: ﴿اجْعَل لِّي آيَةً﴾ أى علامة أعرف منها موعد الحمل، فقال له ربه: آيتك أى علامتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا، أى لا تستطيع أن تكلم الناس إلا بالرمز والإشارة، وأن تستطيع ذكر الله، فاذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والإبكار، أى فى المساء، وفى الصباح من وقت الفجر إلى الضحى، وقد وضح هذا الاتجاه الزمخشرى فقال: «آيتك ألا تقدر على تكليم الناس ثلاثة أيام، وإنما خص تكليم الناس ليعلم أنه يحبس لسانه عن القدرة على تكليمهم خاصة مع إبقاء قدرته على التكلم بذكر الله؛ ولذلك قال: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾، يعنى فى أيام عجزك عن تكليم الناس، وهى من الآيات الباهرة. فإن قلت لم حبس لسانه عن كلام الناس؟ قلت ليخص المدة بذكر الله لا يشغل لسانه بغيرها، توفرا منه على قضاء حق تلك النعمة الجسيمة، وشكرها الذى طلب الآية من أجله، كأنه لما طلب الآية لأجل الشكر قيل له آيتك أن تحبس لسانك إلا عن الشكر. وأحسن الجواب وأوقعه ما كان مشتقا من السؤال ومنتزعا منه».

هذا هو الاتجاه الأول. وأساسه أن ثمة أمرا آخر خارقا للعادة، وهو عجزه عن كلام الناس مع قدرته على الذكر.

أما الاتجاه الثانى، فأساسه غير ذلك، إذ إن معنى النص الكريم على هذا الاتجاه أن زكريا شعر بإكرام الله تعالى إكراما خصه به، وكانت آية ذلك الإكرام بين الناس أنه قد أنجب من عاقر وعجوز ولدا، وقد بلغ من الكبر عتيا، فدعا ربه أن يجعل له بين الناس آية تدل على عظيم شكره، وأن يختص من بين الناس بهذا الشكر، ليعلم الناس علامة شكره كما علموا علامة إكرامه، فقال سبحانه:



﴿آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا﴾ بأن تحبس أنت لسانك عن حديث الناس وتجعله خاصا لله ثلاثة أيام لذكره وتسبيحه طرفى النهار وزلفا من الليل، فهذه آية شكر فى نظير آية إنعام، وقد يزكى ذلك الاتجاه أنه لا دليل فى الآية على العجز عن الكلام، فما قال تعالت كلماته ألا تستطيع الكلام، بل قال: ﴿أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ﴾ وإضافة عدم الكلام إليه يدل بظاهره على أنه امتنع اختيارا لا اضطرارا، وأن الأنسب بشكر النعمة أن يكون امتناعه عن كلام الناس بالكف عنه، لا بالعجز عنه، فإن الأول اختيارى يعد شكرا، والثانى غير اختيارى يعد عجزا، وإن سياق القصة فى سورة مريم أظهر فى الدلالة على الاختيار دون الإجبار إذ يقول سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [مريم].

وقد كان الدعاء بطلب الولد فى المحراب وإجابته فوره كما نوهنا، وكانت المجاوبة فيه أيضا، فخرج إلى الناس ينفذ طلب ربه فى أن يحبس وهو مختار لسانه عن غير ذكر الله تعالى، ويعتزم العكوف على الذكر والتسبيح ويدعو الناس إليه بالرمز والإشارة، لا بالكلام والعبارة. وإن هذا الاتجاه لا ينكر الخوارق، ولكنه ليس فى الآية مايدل على الخارق، ويعتبر من مرشحات شكر النعمة أن يكون ترك كلام الناس اختيارا. وفوق ما تقدم فإن عطف قوله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾. يقتضى أن يكون قوله تعالى: ﴿أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ...﴾ جملة طلبية؛ لأن الجملة الطلبية لا تعطف إلا على مثلها، وإذا كان الامتناع عن كلام الناس طلبا من الله العلى القدير، فهو اختيارى من المكلف وليس حبسا وعجزا، أما إذا كان خارقا فهو إخبار وليس بطلب.

وهنا بعض عبارات نفسرها لفظيا:

الأولى: كلمة ﴿إِلاَّ رَمْزًا﴾ قد جاء فى تفسير الزمخشرى: «إلا إشارة بيد أو رأس أو غيرهما، وأصله التحرك، يقال ارتمز إذا تحرك، ومنه قيل للبحر الراموز، وقرأ يحيى بن وثاب «إلا رمُزُاً» بضمتين جمع رموز كرسول ورسل؛ وقرئ «رمزاً» بفتحتين جمع رامز كخادم وخدم.

والثانية: كلمتا ﴿بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾؛ فالعشى من حين تزول الشمس إلى أن تغيب، والإبكار من طلوع الشمس إلى وقت الضحى.

والثالثة: كلمتا ذكر وتسبيح؛ فإن الذكر معناه أن يستحضر الإنسان عظمة ربه، وينطق بها لسانه، والتسبيح معناه التنزيه المطلق لله سبحانه وتعالى، وقد كان طلب الذكر والتسبيح في هذا المقام مناسبا لتلك النعمة التى أسداها لعبده ونبيه زكريا عليه السلام؛ فإن سيادة المادية فى بنى إسرائيل وطغيانها على الروح أنستهم ذكر الله، وسيادة الفلسفة المنكرة للإرادة جعلتهم لا ينزهون الله تعالى، فدعا ربه لأن يقوم بهذا الأمر الذى فيه استذكار كل معانى الألوهية وانصراف بالكلية للنواحى الروحية. وفى التسبيح إدراك لله وتنزيه له عن العلية؛ ولذا اتخذ زكريا من هذا الخارق للعادة بإنجابه ولدا سبيلا لأن يدعوهم إلى التسبيح وهو التنزيه عن العلية والسببية وكل ما لا يليق بذات الله تعالى، وأن يتركوا ما هم عليه من ماديات وفلسفة تنكر الإرادة لرب العالمين، فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا.

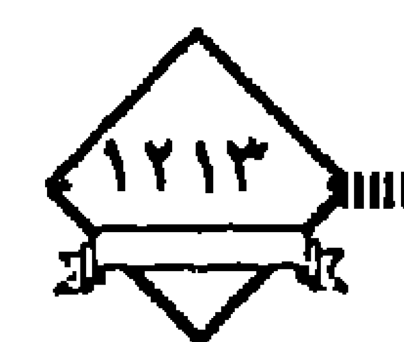
وَإِذْ قَالَتِ
الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ
عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي
وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ
إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ
مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾

بين الله سبحانه الأمر الخارق للسنن التى سنها فى خروج الحىّ من الحى، بالنسبة لولادة يحيى من عجوز عاقر، وإن الذى خرق هذه السنن هو خالق السنن، وإنما خرقها الذى خلقها ليعلم الناس أنه سبحانه خلقها بإرادته وحكمته؛

فإنه سبحانه وتعالى فعال لما يريد. وبعد أن بين ذلك، وهو العليم، مهد سبحانه لخارق أعظم وأبين، ليقرع حس الناس فى عصر غلب فيه التفكير المادى على التفكير الروحى؛ وذلك هو خلق عيسى بن مريم من غير أب، كما خلق من قبل آدم من غير أب ولا أم، وكان ذلك التمهيد ببيان الإرهاصات التى سبقت ولادة عيسى عليه السلام ، وهو اصطفاء مريم واختيارها لتكون محل تلك الوديعة التى يودعها الله رحمها من غير علاقة ذكر بأنثى، وكان الاصطفاء بالطهارة والعفة والقنوت، والركوع والخضوع لرب العالمين، ثم باختيارها النهائى للوديعة الربانية؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ «الواو» هنا عاطفة، وهى تعطف هذا النص الكريم على قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ... ﴿٣٥﴾﴾ [آل عمران] فهذا عود إلى قصة مريم البتول التى ابتدأت بالنذر بها وهى حمل، ثم ببيان حال أمها عند وضعها وبعد وضعها، وما كان من رزق الله تعالى لها وكفالة نبى الله زكريا إياها، مما جعلها تنشأ تنشئة التقوى والورع، ولما شبت عن الطوق واكتملت فى تكوينها وأنوثتها خاطبتها الملائكة بذلك الخطاب ﴿قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ﴾ وتفسر كلمة الملائكة هنا بعدد منهم، لا بواحد، كما استظهرنا مع ابن جرير فى خطاب الملائكة لنبى الله تعالى زكريا عليه السلام؛ ولكن يجىء هنا البحث: من أى نوع خطاب الملائكة لمريم البتول؟ أكان بالمخاطبة كما يخاطب النبيون، أم كان بالإلهام أو الرؤيا الصادقة فى النوم؟ لم تبين الآية هنا نوع الخطاب؛ ولذا قال بعض العلماء: إن الخطاب كان بالإلهام، وإلى هذا يومئ الزمخشرى رضى الله عنه، ولكنه صرح بقوله: «روى أنهم كلموها شفاها معجزة لزكريا، أو إرهاصا لنبوة عيسى عليه السلام».

وبعض العلماء كما ترى قرر أن الخطاب كان مشافهة ولم يكن إلهاما، ولا رؤيا صادقة فى النوم؛ وإنا نميل إلى ذلك الرأى، ؛ لأنه ثبت بنص القرآن الصريح



الذى لا يحتمل تأويلا أن الملك خاطبها حين ابتدأ حملها، كما جاء فى سورة مريم، إذ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ [مريم].

والروح الذى ذكر مضافا إليه سبحانه هو روح من عند الله، أرسله سبحانه ليبشر مريم البتول بعيسى عليه السلام، ولم يكن الملك يحمل وديعة كما يحمل الإنسان؛ لأنه ليس بإنسان، والعلاقة الجنسية من خواص الآدمية؛ بل الوديعة التى يحملها هى بشرى، والخلق والتكوين لرب العالمين، وهو يخلق الحى من غير جرثومة حياة، كما يخلق جرثومة الحياة نفسها.

وإذا كانت الملائكة قد خاطبت مريم مشافهة فهل هى نبية، لأن الملائكة خاطبوها؟ هكذا قال بعض العلماء.

ولكن الأكثرين على أنه لا يمكن أن تكون نبية، وخطاب الملائكة لها لا يقتضى النبوة؛ لأن النبى من يوحى إليه بشرع، ومريم لم يوح إليها بشىء من الشرع، ولكنه كان خطابا للبشارة بواقعة معينة دالة على علو منزلتها، واصطفاء الله سبحانه وتعالى لها.

والاصطفاء افتعال من صفا؛ فمعنى اصطفى طلب الصفوة المختارة؛ والمعنى اللازم هو اختيار الله تعالى لها باعتبارها من صفوة الإنسانية البرة التقية. ولقد كان اصطفاء الله تعالى إياها مرتين بينهما طهر وتقى؛ فأما الاصطفاء الأول فحين قبولها نذرا من أمها البرة التقية، واختيارها لسدانة البيت المقدس؛ وأما الاصطفاء الثانى فهو حين اختارها لتكون أما لمن لا أب له، إذ تلد بعد أن تحمل من غير علاقة تناسلية مما يجرى بين البشر؛ وبين الاصطفاءين طهر وتقى وعفاف، وإيمان وانصراف للعبادة، وهذا هو معنى قوله تعالى عن خطاب ملائكته لمريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ وذكر فى الاصطفاء ما يدل على أنها

به مختارة دون نساء العالمين؛ لأن الاصطفاء الأول ومعه الطهر والتقى لا تختص به مريم، فكم من عابدات قانتات قوامات بالليل صوامات بالنهار؛ أما الاصطفاء الثاني وهو أن تلد من غير أب فإن ذلك قد اختصت به لم تشركها فيه امرأة فى هذا الوجود؛ ولذا قال فيه: ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾.

وإن هذا التعبير يدل فوق دلالته على اختصاصها بهذا الاصطفاء، يدل على أن لها فضلا على نساء العالمين، إذ إن التعبير ﴿عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ يتضمن معنى الأفضلية عليهن، وإن لها ذلك الفضل، ولذلك قال النبى ﷺ فيما رواه مسلم عن أبى موسى الأشعرى: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»(١) وروى من طرق صحيحة: «خير نساء العالمين أربع: مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد»(٢).

﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ القنوت لزوم الطاعة والاستمرار عليها، مع استشعار الخضوع التام المطلق، والاستسلام لله وإسلام الوجه لله الكريم، فمعنى نداء الملائكة دعوتها إلى أن تستمر على ما هى عليه من خضوع لله وإسلام وجهها له سبحانه، وتفويض أمورها له. وتكرار النداء لإشعارها بقربهم منها وهم رسل ربهم إليها، وفى ذلك بيان قربها منه سبحانه وتعالى. وفى تكرار النداء إشعار بأن طلبهم الاستمرار على القنوت هو من قبيل شكر الله على هذه النعمة؛ فهذا الاصطفاء يوجب الشكر بالاستمرار على القنوت، وقوله تعالى: ﴿وَاسْجُدِي﴾ هذا الأمر هنا يفسر بملازمة الطاعة والعبادة؛

---

(١) متفق عليه رواه البخاري: أحاديث الأنبياء - (٣١٧٩)، ومسلم: فضائل الصحابة - فضائل أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها (٤٤٥٩) عن أبي موسى الأشعري، واللفظ لمسلم.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ج٦ ص١٨٦، عن أنس رضي الله عنه، ورواه الترمذي: المناقب - مناقب خديجة رضي الله عنها (٣٨١٣) وقال أبو عيسى: هذا حديث صحيح.

فالسجود الخضوع المطلق لله تعالى؛ لأن أظهر مظاهر الخضوع أن يتطامن الشخص فيضع جبهته على الأرض خضوعا لله تعالى، وشعورا بعظمته وجلالته، وعلوه سبحانه، وانخفاض العبد أمامه. وقوله تعالى: ﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ فسرها الزمخشرى بأن تصلى مع المصلين، فقال: «﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ بمعنى لتكن صلاتك مع المصلين أى فى الجماعة، أو انظمى نفسك فى جملة المصلين، وكونى معهم فى عدادهم، ولا تكونى فى عداد غيرهم»، فالأمر بالركوع مع الراكعين كناية عن صلاتها مع الجماعة، وهذا فيه فائدة، وهى إثبات أن الصلاة مع الجماعة من تمام النسك والعبادة. فمريم البتول كانت ملازمة للمحراب منذ نشأتها فى كفالة زكريا عليه السلام، وهى بهذا تشبه أن تكون بعزلة عن عوجاء الحياة وما فيها، وما عند الناس حتى فى عباداتهم، فبينت لها الملائكة عن الله سبحانه أن تصلى جماعة مع الناس، فإن صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد.

وعلى ذلك يكون الأمر بالسجود من قبيل الأمر العام بالانصراف للعبادة والطاعة؛ لأن فيه أظهر مظاهر إسلام الوجه لله، ويكون الأمر بالصلاة ثابتا بقوله ﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾.

ويصح أن نقول إن الأمر بالسجود هو أمر بالصلاة مطلقا، إذ إنه أظهر مظاهر الصلاة، وأقواها تأثيرا فى النفس، وكان الأمر على هذا النحو بأن تديم الصلاة منفردة وفى خلواتها؛ وقوله تعالى: ﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أمر آخر بأن تصلى مع الجماعة وألا تنقطع عنهم لفضل الصلاة فى الجماعة، وكأن فى النص تعبيرا عن طلب الصلاة بتعبيرين؛ أولهما: طلبها بعبارة «اسجدى» والثانية: طلبها مع الجماعة، بعبارة «اركعى»، والبلاغة تسوغ أن تعبر عن المعنى الواحد بعبارتين مختلفتين فى صيغتيهما ومادتهما فى مقام واحد، وإن كان الأمر الأول مطلقا، وكان الثانى مقيدا.

هذه قصة مريم فى ولادتها، وتهيئتها للآية الكبرى الدالة على أن الخالق فاعل مختار، قد قصها الله جل شأنه فى القرآن الذى جاء به أمى لا يقرأ ولا

يكتب، لم يتعلم ولم يجلس إلى معلم، ولم يختلط باليهود والنصارى، وفوق ذلك هذه القصة لم تكتب فى التوراة قط، ولم يتعرض لها الإنجيل، وجاء بها القرآن الكريم. وهى صادقة كل الصدق فمن أين جاء علم هذا إلى ذلك الأمى؟ إنه من عند الله. أشار المولى إلى هذا المعنى بقوله:

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ الإشارة إلى القصص الحكيم الذى شمل نذر أم مريم، وولادتها، وكفالة زكريا لها، ودعاء زكريا وإجابة الله دعاءه، ولزوم مريم للعبادة، وخطاب الملائكة؛ فبين الله سبحانه وتعالى أن هذا القصص من أنباء الغيب، أى من الأخبار العظيمة الشأن التى اختص بها علم الله، وهى مغيبة عن الناس لم يدونها تاريخ، ولم يذكرها كتاب، فهى مغيبة عن علم الناس لا يعلمها أحد إلا من الله تعالى، وهى عظيمة الشأن فى مجرى التاريخ الدينى، ومجرى الفكر الإنسانى، ومجرى التاريخ بشكل عام؛ وذلك لأنها تتعلق بآية من آيات الله الكبرى فى هذا الوجود، وهى إيجاد إنسان كامل مستو من غير أب ، وحمل امرأة من غير تلقيح؛ فإن هذا يفتق ذهن الإنسان المفكر لأن يدرك أن الله يخلق الأشياء بإرادته غير مقيد بسنن كونية، ولا بنظم فى الخلق والإنشاء؛ لأنه خالق كل السنن وكل النظم؛ وبذلك يرد أقوال الفلاسفة الذين زعموا أن العالم نشأ عن العقل الأول نشوء المعلول عن العلة من غير إرادة مبدعة مسيرة.

والأنباء جمع نبأ، والنبأ هو الخبر العظيم الشأن، فليس كل خبر يسمى نبأ، والغيب هو الأمر المغيب المستور الذى لا يعلم إلا من قبل الله تعالى. وقوله: ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ إشارة إلى موضع الصدق وهو أنه بوحى من الله تعالى؛ وهو كالنتيجة لكون الموضوع مغيبا، لم يذكر فى واقعة تاريخية ولا فى كتاب دينى من قبل، لأنه إذا كان مغيبا عن الناس جميعا فعلمه لا يكون إلا من الله تعالى. وفى قوله: ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ مع كونه من قبل كان مغيبا إشارة إلى معنى الاختصاص، وفى الاختصاص بالتعريف كل معانى التكريم الإلهى لمحمد ﷺ.

وإذا كانت حال مريم وخلوصها لعبادة الله تعالى مجهولة للناس قبل بيان القرآن، فإن القرآن صاحب الفضل فى بيان براءتها من الدنس، ومقامها فى عبادة

الله تعالى، وكفالة الله تعالى لها بنبي من أنبيائه، وتشريف الله تعالى بخطاب ملائكته لها مبشرين بالآية الكبرى والمعجزة الإلهية القاطعة، وذلك بولادة عيسى عليه السلام.

وفي ذلك إشارة إلى وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، وهو إخباره بالصادق الذى لا يوجد دليل قط على كذبه مع أن النبى ﷺ لم يقرأ ولم يكتب، ولم يتعلم، والخبر لم يكن مدونا من قبل حتى يتلقاه من أحد كأولئك؛ الذين ادعوا أنه كان يقول ما يقول عن أخبار بني اسرائيل من حداد بمكة، وقد رد الله تعالى فريتهم بقوله تعالى: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣)﴾ [النحل]. فلا يمكن أن يدعى لأخبار مريم؛ لأنه ما كان معلوما قبل بيان الله تعالى، ولذلك سماه غيبا.

وقد وضح سبحانه وتعالى هذا المعنى، وهو كون هذا بوحى، لا من عند محمد عليه الصلاة والسلام، بقوله:

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ الأقلام جمع قلم، من قلمه بمعنى قطعه، والمراد بالأقلام القداح التى يضربون بها القرعة. والاختصام معناه فى الأصل أن يكون كل فى خصم أى جانب، والاختصام هنا هو التنافس بينهم فى كفالة مريم؛ وذلك لأنها ولدت يتيمة، وقد تيمن العباد من بنى إسرئيل بها، وكل يرجو خيرا من كفالتها، ويتخذ من هذه الكفالة قربة وزلفى إلى الله العزيز الحكيم، العليم الخبير، فلما كان الاختصام والتنافس اتفقوا على القرعة تحكم بينهم، وقد كانت نتيجة القرعة أن آلت كفالتها إلى نبى الله زكريا عليه السلام، وهكذا كان الله تعالى يختار لها ولابنها؛ فاختارها من صفوة آل عمران، واختارها منذورة للعبادة محررة لها، واختارها مكفولة بنبى، واختارها لخطاب الملائكة إياها، ثم كانت النتيجة لهذا كله أن اختارها على نساء العالمين لتكون موضع آيته الكبرى فى هذا الوجود.

والمعنى الجملى للنص الكريم: وما كنت لديهم أى عندهم إذ يختصمون ويتنافسون على كفالة مريم، كل يريدها فى كنفه ورعايته، وما كنت لديهم إذ

يحتكمون إلى القرعة، ليعرفوا بطريق التفويض للغيب أيهم يكفل مريم فتضم إليه، وقد ذكر سبحانه من قبل أن الكفالة بهذه القرعة آلت إلى زكريا عليه السلام، إذ قال من قبل: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ... ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران].

ما كنت عندهم فى هذا الوقت، وما تلقيت بالسماع من أحد، وما كنت تقرأ فى كتاب، فمن أى شىء علمت هذا الغيب الذى لا يعلمه أحد؟ إنه لا بد أن يكون من عند الله تعالى، فهذه الجملة الكريمة سيقت لإثبات أن العلم كان وحيا من عند الله العليم الخبير.

وهنا بعض مباحث نشير إليها:

أولها: أن «لدى» معناها «عند»، و «لدى» هنا تشير إلى معنى ليس فى «عند»؛ ذلك أنها تشير إلى عندية بعيدة غير حاضرة ولا قريبة فى الزمن؛ فهى تشير إلى أن خبر مريم وولادتها خبر بعيد موغل فى القدم بالنسبة للإنسان، فما كانت هذه العندية متصورة، وما كان لأحد أن يعلم ما عند القوم علم من يشاهد ويعاين؛ لأن كثيرا منها كان نفسيا قلبيا، وبعضه كان حسيا ماديا ولكن لم يعلم للناس.

وثانيها: أن هذه القصة ليست معلومة على هذا الوجه عند المسيحيين، ولا يسعهم تكذيبها؛ لأنها أقرب إلى العقول مما ينسبونه لمريم من أنها كانت ذات بعل، أو مخطوبة أو نحو ذلك، فما عندهم مدعاة للشك، وما ذكره القرآن مدعاة للصدق والطهر والنقاء، وهذا الذى يرشح للآية الكبرى بولادتها من غير حمل؛ فأى الخبرين أصدق قيلا؟

وثالثها: وهو أن هذه القصة بما تشير إليه الآية الكريمة: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ﴾ تشير إلى بعض معانى الإعجاز فى القرآن الكريم، وهو حكاية أخبار الأولين التى لم يكن يعلمها أحد إلا ربّ العالمين، وهى حكاية دلائل الصدق فيها واضحة، وبينات الحق فيها لائحة؛ وإذا كان النبى لا يعلمها عن

مشـاهدة ولا عن سماع، فطريق العلم بهـا هو الله، وهذا يدل على أن القرآن من عند الله العزيز الحكيم، وهو سجل الشرائع السمـاوية الخالد إلى يوم القيامة، ولو كره الكافـرون، كما قـال منزله سبـحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ⁽٩⁾﴾ [الحجر].

إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾

توالت فى هذه القصة خوارق العادات مـتدرجة من القريب من المألوف إلى البعيد الـذى لا يعرفه الناس قط بمقتضى السنن الكونية المطردة؛ فـقد ولدت مريم البتول بعد أن نذرت لتكون خالصة للبيت المقدس، وكان يأتيها فى المحراب الرزق من حيث لا تحـتسب ولا تقدر، حـتى أثار ذلك عجب نبى الله زكـريا، ثم كانت ولادة امرأة زكـريا، وهى عجـوز عاقر، وهو قـد بلغ من الكبر عـتيـا؛ ثم كانت الحادثة الكبـرى التى تدل على أن الله تعالى مـبدع الكون وخالق الأسـباب ينشئ الكون كـما يريـد، وتلك الحادثة هى ولادة عـيـسى من غـير أب؛ وهذا هو مـا اصطفى الله به مريم ابنة عمران؛ ولذا يقول سبحانه:

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ الكلام فى هذه الآية الكريمة متصل بما سبقها؛ فإذ هنا متعلقة بما تعلقت به

إذ فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [آل عمران] فإذ هنا فى مقام البدل أو البيان من الأولى؛ لأن هذا فيه تفصيل لمعنى الاصطفاء الذى اختصت به على نساء العالمين؛ والمعنى: اذكر إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك . . إذ كان ذلك الاصطفاء على نساء العالمين؛ بأن كانت هى التى تلقت البشارة الكبرى بأن تلد مولودا من غير أب قد أنجبه. والملائكة الذين خاطبوا مريم بذلك الخطاب يتضح من السياق أنهم الذين خاطبوها بالاصطفاء؛ فكأنهم قد بشروها بالاصطفاء على نساء العالمين، وبشروها مع ذلك بنوع الاصطفاء. وقد استظهرنا كما استظهر ابن جرير الطبرى أن الملائكة الذين بشروا بالاصطفاء كانوا عددا ولم يكونوا واحدا، فلابد إذا أن الذين بشروا بحقيقته كانوا عددا أيضا، ولكن سورة مريم فيها بيان أن الذى أنبأها نهائيا بهبة الله تعالى لها كان ملكا تمثل فى صورة بشر قد أودعها ما يكون منه الولد من غير تلقيح جنسى؛ لأن الملك ليس له تلك الشهوة الإنسانية؛ ولذا قال سبحانه: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾ [مريم].

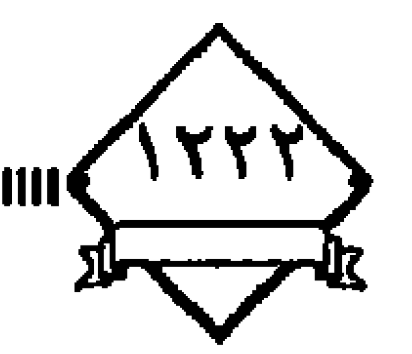
وإن التوفيق بين هذا النص الكريم، والنص الذى نتكلم فى معناه سهل لا يحتاج إلى إعمال فكر؛ ذلك أن الله سبحانه وتعالى أرسل ملائكته إليها يبشرونها بالاصطفاء ويبشرونها بنوع الاصطفاء، ثم أرسل إليها بعد هذه البشارات المتكررة ملكا تمثل لها بشرا سويا، . ليودع رحمها نهائيا تلك الهبة التى أهداها رب العالمين إليها.

ذكر سبحانه البشارة بأنها كلمة منه، وأن معنى هذه الكلمة شخص حى يسرى عليه حكم الأحياء اسمه المسيح عيسى ابن مريم، فلماذا اعتبره الكريم كلمة

منه؟ لأنه سبحانه خلقه وأبدعه بكلمة منه؛ فإذا كان سبحانه قد خلق الأحياء بطريق التناسل: الرجل يلاقح الأنثى، ويخرج الأولاد من أصلاب الآباء، فإن عيسى عليه السلام لم يخلق ذلك الخلق، بل خلقه الله تعالى خلقا آخر؛ خلقه بكلمة منه وهى «كن» فكان، فكان جديرا بأن يعتبر كلمة، وأن تكون هذه الكلمة منسوبة إلى الله تعالى.

ويقول ابن جرير: إن الكلمة هى كلمة البشرى، تشريفا لمريم البتول، وتكريما لها بأن تكون البشرى بكلمة من الله، أى بخطاب من الله تعالى مرسل منه إليها. ويزكى هذا قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ . . . ﴿١٧١﴾﴾ [النساء]. وقوله تعالى: ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ هو ما تضمنته البشارة، ويكون التأويل: يبشرك ببشارة جازمة قاطعة لا احتمال لتخلفها؛ هذه البشارة هى ولد اسمه المسيح عيسى ابن مريم. وكأن «اسمه المسيح» تكون خبرا لمبتدأ محذوف تقديره: البشارة ولد اسمه المسيح عيسى بن مريم.

وقد عرَّف سبحانه وتعالى ذلك المولود بثلاثة تعريفات: لقب، واسم وكنية؛ أما اللقب فهو المسيح، وأما الاسم فعيسى، وأما الكنية فهو ابن مريم، وهذه التعريفات الثلاثة، كل واحد منها يومئ إلى معنى قد تحقق فى السيد المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم؛ فأما الكنية فللإشارة إلى أن نسبه ثابت لأمه لا لأحد سواها، فليس ابنا لأى حىّ من الأحياء، وليس ابنا لله تعالى كما توهم أو كما لبَّس على نفسه كل من لا يريد أن يحكِّم عقله فيما لُقِّن من عقائد باطلة، ولا تعلق لهم فى أن عيسى قيل عنه كلمة الله، فالكلمة هى البشارة، وهى مخلوقة، أو لأنه خلق بكلمة الله وهى «كن» وكلتاهما لا يمكن أن تكون ابنا لله تعالى. وأما الاسم فينبئ عن البياض والصفاء المعلم الواضح؛ ولذلك يقول الأصفهانى: «عيسى اسم علم وإذا جعل عربيا أمكن أن يكون من قولهم: بعير أعيس وناقة عيساء، وهى إبل بيضاء يعترى بياضها بعض الظلمة، أى فيها اغبرار يعطى بياضها صفاء وجمالاً»، فهو ينبئ عن جمال تكوينه، وجمال دعوته وصفاء رسالته.



وأما اللقب فهو ينبئ عن البركة والفضل، وهو أحسن ما قيل فى ذلك؛ فقد ذكر الزمخشرى أن كلمة مسيح فى أصلها العبرى، وهو مشيح، معناه مبارك، وهذا قد جاء فى شكره لربه إذ قال: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ... ﴿٣١﴾﴾ [مريم].

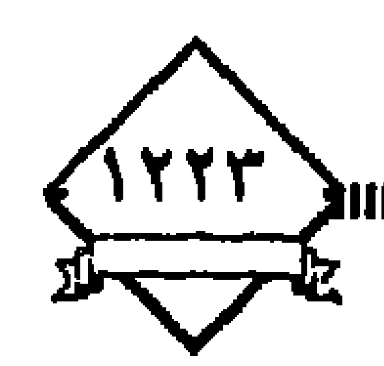
وقد وصفه الله سبحانه وتعالى بأربعة أوصاف وأحوال؛ أولها: أنه وجيه فى الدنيا والآخرة، والثانى: أنه من المقربين، والثالث: أنه يكلم الناس فى المهد وكهلا، والرابع: أنه من الصالحين. وقد ذكرت هذه الأوصاف كلها لأمه وقت البشارة به، فكانت أجل تبشير لأم رءوم فى مثل تقوى مريم البتول.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى الوصفين الأولين بقوله تعالى:

﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ هذان وصفان تمَّا لعيسى الرسول بعد كمال رجولته، وظهرا أتم ظهور فى أداء رسالته، وأحدهما وصف ذاتى أضفاه الله تعالى على ذاته النبوية الطاهرة ليكون صاحب رسالته، وداعى هدايته، وناشر رحمته، وذلك الوصف هو الوجاهة فى الدنيا، والوصف الثانى وصف إضافى، وهو أنه فى موضع المقربين من الله تعالى، وهذا وصف يضفى شرفا إضافيا، فوق شرف النبوة، وشرف الرسالة الإلهية .

وكلمة «وجيه» مشتقة من الوجه؛ لأنه هو الذى يلقى به الناس، وهو مظهر كل مافى النفس مما يوجب الاحترام، ومنه اشتقت كلمة جاه، أى أن من له جاه يكون ذا وجه دال على الاحترام والشرف، فمعنى «وجيها» أى أنه ذو شرف ومكانة؛ أما مكانته يوم القيامة، فأمر مقرر ثابت، وإذا لم يكن لمثل عيسى هو وأمثاله من النبيين عليهم السلام وجاهة فوق تقديرنا، فلمن تكون وجاهة الآخرة؟

وأما وجاهة الدنيا فأمر ثابت مقرر، وأى وجاهة وشرف وأثر فى النفوس أكبر من وجاهة رجل روحانى يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى، ويؤثر فى القلوب فتنجذب له، ولم يستطع أن ينال خصومه منه شيئا، وإذا قيل إن اليهود آذوه وطردوه فليس ذلك بمانع من وجاهته، بل إنه دليل وجاهته وأثره فى



القلوب، ولو كان خاملا ما تحركوا لإيذائه، ومع ذلك لم ينالوا منه شيئا، ولم يمكنهم الله من رقبته، بل نجاه من شرورهم ودسائسهم، فكيف لا يكون وجيها عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم؟!.

فعيسى عليه السلام كان وجيها، ووجاهته أكمل أنواع الوجاهة، وهى الوجاهة التى تتجرد من كل سلطان إلا سلطان الحق والروح، وبهما ملك القلوب. والجاه الحق - كما قال الغزالى - هو ملك القلوب.

وأما كونه من المقربين إلى الله تعالى، فمعناه أنه مقرب إلى الله تعالى كما هو قريب من الناس، وأنه وجيه عند الله تعالى ذو مكانة قريبة منه، كما هو ذو مكانة عند الناس.

ولقد بين سبحانه وتعالى حالين هما من أحوال المسيح عليه السلام، فقال تعالى:

﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ المهد: هو مضجع الطفل، من مهد يمهد مهدا، بمعنى أنه مهيأ مسهل له وهو فى الرضاعة.

ومن فى المهد يكون طفلا صغيرا يحمل لا يتصور منه كلام مطلقا، والكهل هو الرجل السوى، والأمر الخارق للعادة فى هذا أن عيسى عليه السلام تكلم وهو فى المهد، وكلامه وهو فى المهد ليس لغو صبيان، بل هو كلام شبان مكتهلين، وقد بلغوا تمام الرجولة والاستواء العقلى، وجمعهما معا فى الكلام يدل على أن كلامه فى الأول من نوع كلامه فى الثانى؛ ولذا يقول الزمخشرى: «ومعناه يكلم الناس فى هاتين الحالتين كلام الأنبياء من غير تفاوت بين حال الطفولة، وحال الكهولة التى يستحكم فيها العقل، ويستنبأ فيها الأنبياء» وإن ما حكاه الله تعالى عن كلامه فى المهد ليوضح ذلك؛ ففى سورة مريم: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ

يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾ [مريم].

وقد ذكر سبحانه حالا ثانية من أحواله، أو وصفا من أوصافه، وهو أنه من الصالحين، وهذا رمز إلى ما يأتى بـه من إصلاح خلقى واجتماعى، وروحى فكرى؛ إذ يزيل النزعة المادية من قلوب المؤمنين؛ فإن الصالح حقا هو الذى يصلح، فليس بصالح صلاحا كاملا من لم يرشد غيره إلى طريق الصلاح.

هذه بشارة الله بطريق ملائكته لمريم البتول، وقد بين الله تعالى أن هذه البشارة أثارت عجبها واستغرابها: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾:

هذه الجملة السامية تدل على بالغ عجبها، وتومئ إلى ارتياعها الذى عبرت عنه كما فى سورة مريم: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾ [مريم]. صدرت إجابتها بالنداء للرب، وفيه معنى الاعتراف بالخلق والتكوين، وكمال الربوبية لله سبحانه وتعالى، فهو تسليم بالقدرة الإلهية، وبأن خالق كل شىء لا يكبر عليه شىء، سبحانه وتعالى.

و﴿أَنَّىٰ﴾ فى قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾ هى بمعنى كيف، أى كيف يكون منى ولد ولم يمسسنى بشر أى لم يكن منى ما يكون بين الرجل والمرأة مما يكون منه ولد. فالاستغراب فى الكيفية، لا فى أصل القدرة الإلهية. وكلمة ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي﴾ إما أن نعتبرها كناية عن اختلاط الرجل بالمرأة، وهذا ظاهر، وتعبير القرآن عن اتصال الرجل بالمسيس مجاز مشهور معروف، حتى يكاد يكون حقيقة عرفية فى لغة القرآن الكريم؛ أو نقول: المس المراد به حقيقته، وهو أنها لم يلمسها رجل؛ لأنها متبتلة دائما منصرفة للعبادة لم يلمس جسمها رجل من غير محارمها قط؛ وبذلك ينتفى بالأولى ما هو أبلغ من مجرد اللمس، فموضع العجب والسؤال هو أن يكون ولد من غير اتصال رجل بامرأة. ولقد أزال عجبها رب البرية بقوله تعالى:

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أى كهـذا الخلق الذى تجدينه فى أن يكون لك ولد من غير أن يمسك رجل وهو إبداع، يخلق الله تعالى ويبدع ما يشاء ويريد إبداعه، وكلمة يخلق غير ينشئ؛ لأن الخلق إنشاء على غير مثال سبق، فالتعبير بـ «يخلق» يفيد الإبداع، وأنه منهاج فى التكوين يخالف منهاج غيره فى التكوين. وهذه الجملة السامية تفيد أمورا ثلاثة:

أولها: أن هذا النوع من التكوين، وهو إنجاب من غير أب هو فى قدرة الله تعالى؛ لأنه الخالق المبدع، وما هو غريب عليكم هو فى قدرته سبحانه؛ لأن من خلق الخلق الأول وخلق السنن الكونية وغيرها قادر على تغييرها؛ لأنه مبدعها ومنشئها.

ثانيها: أن خلق عيسى أمر من أمر الله تعالى، وعيسى ليس إلا مخلوقا من مخلوقاته، فهو أبدعه كما أبدع غيره من المخلوقات، فليس إلها ولا ابن إله.

ثالثها: أن خلق الله تعالى بمشيئته وإرادته، وهذا فيه إشارة إلى السبب الذى من أجله خلقه الله تعالى من غير أب وهو أن المخلوقات لا تصدر عن الله صدور المعلول عن علته، ولكنها توجد بإيجاده وتنشأ بإبداعه: ﴿بديع السموات والأرض أنَّى يكون له ولد﴾ وفى ذلك رد عملى على أهل الفلسفة المادية التى تقول إن العالم نشأ عن العقل الأول نشوء المعلول عن علته.

ثم أشار سبحانه إلى عظيم قدرته بقوله تعالى:

﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يوجد أمرا لا يوجده إلا بكلمة «كن» وعبر سبحانه عن الإيجاد بـ «قضى» للإشارة إلى أن إيجاده للأشياء ليس إلا من قبيل الحكم عليها بالوجود، فإذا حكم بالوجود فى أمر نفذ حكمه، وحكمه هو أن يقول كن، فيترتب على ذلك أن يكون.

وهل الأشياء حقيقة تنشأ بمجرد الإرادة الإلهية، أم أن هذا تصوير لسهولة الخلق؟ الظاهر أن هذا بيان لسهولة ذلك على خالق الخلق، وبارئ النسم؛ فهو

تمثيل لبيان قدرة الله تعالى الشاملة، وسهولة الإنشاء عليه سبحانه، ونفاذ إرادته فى خلقه، ولذلك جاءت الإجابة فى مثل هذا المقام بهذا المعنى فى سورة مريم فقد قال تعالى فى الإجابة عن استغرابها فى تلك السورة : ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم]. فهذا التعبير الكريم صريح فى أن السياق لبيان سهولة مثل هذا الخلق على خالق الخلق، ويفيد أيضا أن المقصود بيان أن الله سبحانه فعال لما يريد، وهو على كل شىء قدير. ربنا لا ترهقنا من أمرنا عسرا.

وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾

فى هذا القصص القرآنى الصادق تستمر الآيات الكريمة متممة قصة البشارة بعيسى عليه السلام؛ بشرت به أمه قبل أن يكون فى بطنها، وقد أوحى إليها أنه ستكون له تلك المنزلة فى الدنيا والآخرة التى اصطفاه الله تعالى لها، وإن من سنة

الله تعالى فى كلامه المعجز أن يشتمل الكلام على الإيجاز، الذى هو من أسرار الإعجاز، ففى أثناء البشارة قبل الحمل كان بيان رسالته وما هيأه الله به لأداء الرسالة، والمعجزات الكبرى التى أجراها الله سبحانه وتعالى على يديه، وماهية الرسالة التى جاء بها، ومقام رسالته من الرسالات قبلها، ثم بيان تلقى الذين أرسل إليهم هذه الرسالة مؤيدة بهذه المعجزات الباهرة القاهرة، ثم بيان النهاية التى انتهى بها، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم.

ولقد ابتدأ سبحانه ببيان علم الرسالة الذى تكون به قوة الرسول الذى يدعو قوما معاندين من أمثال اليهود والمشركين من الرومان، فقال:

﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾ فى هذه الآية الكريمة يبين الله سبحانه وتعالى علم الرسالة التى أرسله بها، وهو علم بأربعة أمور: علمه بالكتاب، وعلمه بالحكمة، وعلمه بالتوراة، وعلمه بالإنجيل. **أما علمه بالكتاب** فقد قال بعض مفسرى السلف: إنه العلم بالخط والكتابة، وتوجيه ذلك التفسير أن عيسى بعث فى أمة اشتهرت بالعلم والمعرفة، فلابد أن يكون فيه ما هو سبيل العلم والمعرفة وهو الكتابة، وقد كانت آيته فى إثبات رسالته فوق علم العلماء، وقدرة الناس قاطبة. وقال بعض مفسرى السلف أيضا: إن علم عيسى بالكتاب هو علمه بما نزل على النبيين السابقين. وإنا نختار الأول؛ فإنه على التفسير الثانى يكون تكرار؛ لأن علم الرسالات السابقة، فى التوراة التى ذكر أنها من علمه، والتأسيس أولى من التأكيد. **وأما العلم الثانى، وهو الحكمة**، فهو العلم الذى يحكم صاحبه فى القول والعمل، وسياسة الناس فى القول والعمل، ولذا يقول العلماء: إن الحكمة هى العلم النافع؛ فهى العلم الذى تظهر ثمرته فى القول والعمل وهداية الناس، وقيادة نفوسهم؛ ولذلك قال الله تعالى آمرا نبيه الكريم ﷺ: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ... ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل] وإن هذا النوع من العلم هو ألزم العلوم لمن يقود الناس إلى الإيمان، ويدعوهم بدعاية الرحمن.

وأما العلم الثالث والرابع: فهما علم التوراة وعلم الإنجيل، والتوراة تومئ إلى علم الرسالات التى كانت قبلها، وعلم الإنجيل هو العلم برسالته التى بعث بها فى وسط تلك المادية التى استولت على بنى إسرائيل، وهذا يدل على اتصال رسالته بالرسالات التى سبقته، وكل رسول مبعوث لا تكون رسالته مقطوعة عما قبلها، بل هى موصولة بها متممة لها، وهى لبنة فى صرح الرسالات الإلهية

وبعد أن أشار سبحانه وتعالى إلى علم الرسالة التى هيأه الله تعالى لها، أشار إلى من أرسل إليهم، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾:

أى بعثه سبحانه وتعالى رسولا إلى بنى إسرائيل. ومعنى الكلام: ويجعله أو يبعثه رسولا إلى بنى إسرائيل. وذكر بنو إسرائيل خاصة مع أن دعوته كانت تعم كل الذين علموها من اليهود والرومان وغيرهم حتى يجىء من السماء ما ينسخها أو يكملها، وهى الرسالة العامة الخالدة، رسالة محمد بن عبد الله ﷺ؛ والسبب فى اختصاص بنى إسرائيل بالذكر أنهم هم الذين خرج عيسى من بينهم، فهو منهم، وقد كانوا يدعون أنهم أولى الناس بعلم الرسائل الإلهية، وكانت دعوته بينهم، وانبعثت منهم إلى غيرهم، فكان تخصيصهم بالذكر، فيه إشارة إلى حقيقة واقعة وتوبيخ لهم؛ لأنهم أوتوا العلم برسالات الأنبياء، مع ذلك كفروا برسول مبعوث منهم، أوتى بمعجزات لا تجعل للعقل مساغا لإنكار.

ولقد ذكر سبحانه فى هذه الآيات معجزات عيسى التى أرسله الله بها لإثبات رسالته، فقال سبحانه:

﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وهذا النص الكريم فيه معنى هذه الرسالة التى كان بها رسولا، أى أنه يتبين معنى أنه رسول بقوله: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فالجملة عطف بيان لمعنى الرسالة المنطوى فى الكلام. وفى الكلام التفات وانتقال من خطاب الله لمريم، إلى بيان رسالة بشارة الله إليها، وجاء بيان الرسالة على لسانه هو، وابتدأ بيان الرسالة ببيان إثباتها، وهو المعجزة، وكأن المعجزة جزء من الرسالة؛ لأنها ركنها ودعامتها التى قامت عليها، ولأن معجزة عيسى كانت

تومئ إلى معانٍ من رسالته؛ ذلك بأن عصره كان عصرا ماديا، لا يؤمن بالإرادة المختارة لله تعالى، ويؤمنون بالأسباب التى تجرى فى الحياة على أنها المؤثرات فى إيجاد الأشياء، فكانت معجزاته عليه السلام إعلانا لبطلان تأثير الأسباب، بدليل خرق هذه الأسباب، بإحياء الموتى؛ وقد جرت الأسباب المادية التى ترى على أن من مات لا يحيا فى هذه الدنيا، وأن الأكمه الذى ولد أعمى لا يرتد بصيرا، وأن إخراج الحىّ من الطين مباشرة لا يكون، فجاء عيسى بكل هذا، فكان إعلانا قويا بأن الله فاعل مختار، وذلك جزء من رسالته.

والآية هنا هى المعجزة، وهى فى أصلها العلامة، والمراد بها هنا العلامة الدالة على الرسالة، وأطلق على الجزء من القرآن آية؛ لأن كل آية فى كتاب الله تعالى معجزة فى ذاتها، دالة بوحدتها على رسالة النبى ﷺ .

ولقد ذكر بعد ذلك سبحانه آيات، وكانت الآيات المذكورة فى هذا المقام أربعا؛ وعبر عنها بآية؛ لأن مجموعها دال على رسالته، وإن كانت كل واحدة منها تصلح حجة قائمة بذاتها؛ فذكرها بلفظ المفرد للإشارة إلى أنها جميعا كانت آيته.

والآيات الأربع: هى أنه يخلق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله، وأنه يبرئ الأكمه والأبرص، وأنه يحيى الموتى، وأنه ينبئهم بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم؛ فهذه آيات أربع.

والآيات الأربع ذكرت مضافة إلى السيد المسيح عليه السلام؛ لأنها كانت تجرى على يديه، ولأنها هى التى كان يقيم بها الدليل على رسالته؛ وقد خاطب بها بنى إسرائيل، ومن استمع إليه من الرومان وغيرهم.

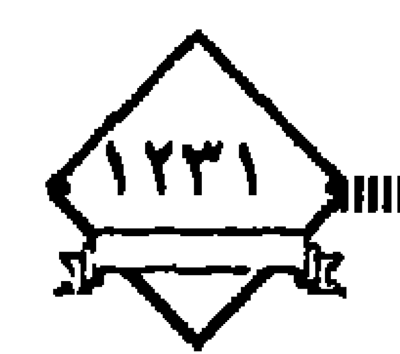
وأول هذه الآيات تصوير الطين ثم النفخ فيه فيكون طيرا، وقد ذكرها سبحانه وتعالى بقوله: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾:

الخلق المراد به هنا التصوير، أى أنه صور من الطين كهيئة الطير، أى بشكله، فينفخ فيه، فكان طيرا بإذن الله تعالى، فهنا أعمال ثلاثة» اثنان منها لعيسى عليه السلام، والثالث لله تعالى جل جلاله وعظمت قدرته، أما اللذان لعيسى فهما: تصوير الطين كهيئة الطير، والنفخ فيه، وأما الثالث الذى هو من عمل الله تعالى وحده، فهو خلق الحياة فى هذه الصورة التى صورها عيسى عليه السلام؛ ولذلك قال: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أى بأمره وإعلامه، والكون كله بأمره سبحانه ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾. وهذا يدل على أنه لم يكن فى عيسى ألوهية، ولا أى معنى من معانيها.

ولقد قال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده: إن الصيغة التى ذكرت بها هذه الآية وهو قوله: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ تدل على استطاعته ذلك ولكنها لا تدل على الوقوع، وعندى أنها تومئ إلى الوقوع لأن ذكر الكيفية وهو أنه يتخذ من الطين صورة الطير، ثم النفخ ثم الكون طيرا يدل على الوقوع لا على مجرد الاستطاعة وفوق هذا فإن آية المائدة تدل على الوقوع بشكل أوضح من هذا؛ فإنه سبحانه وتعالى يقول: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فهذا النص الكريم دليل على الوقوع، لا على إمكان الوقوع؛ لأن الله تعالى لا يمن عليه إلا بالذى وقع فعلا.

والآية الثانية والثالثة: بينهما سبحانه وتعالى بقوله:

﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الأكمه هو الأعمى الذى يولد أعمى، أى الذى لم يُؤت حاسة الإبصار؛ أجرى الله تعالى على يد عيسى عليه السلام إبراءه. والأبرص هو الذى يكون فى جلده بياض مشوب بحمرة، وهو مرض لا يبرأ منه من يصاب به؛ فهذان مرضان لا يتصور بمقتضى العادة، والأسباب الجارية بين الناس أنه يمكن أن يكون منهما شفاء؛ لأن الأول يولد به الشخص ناقصا حاسة الإبصار، والثانى لم يصل الطب إلى الآن إلى طريق للشفاء منه، فإذا كان الله قد أجرى على يدى عيسى عليه السلام الشفاء بهما فإن هذا



يقنع الماديين بأن وراء هذه الأسباب فاعلا مختارا، وليست الأسباب مؤثرة فى الإيجاد، إنما المؤثر هو الله سبحانه وتعالى.

وإحياء الموتى وحده برهان قاطع على أن الأسباب العادية ليست هى المؤثرة وإنما الخالق المكون هو المؤثر، وأن الأشياء لم تخلق بالعلِّية، إنما خلقت بالإرادة المختارة المبدعة المنشئة المكونة، وعبر بقوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فى كل هذا للإشارة إلى أن المبدع المنشئ هو الله سبحانه وتعالى، وأنه ليس ما يجرى على يدى عيسى لمعنى الألوهية فيه، إنما هو لله العلى القدير.

والآية الرابعة بينها سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾:

الإنباء والتنبىء: الإخبار بالخبر العظيم، إما لموضوعه، وإما لعظم شأن الإخبار نفسه، والإخبار عن شىء من غير رؤيته، إخبار عظيم فى ذات شأنه؛ ولقد كان عيسى لفرط روحانيته، ولما أكرمه الله به من إجراء الخارق للعادة على يديه تأييدا لرسالته، يخبر من بعث إليهم بما يأكلون، أى ما يأكلون، وما يدخرون فى بيوتهم، وهذا نوع من الكشف النفسى أعطاه الله لنبيه عيسى عليه السلام، وهو ليس من قبيل الإخبار عن المستقبل، وإنما هو من قبيل الإخبار عن الحاضر الواقع ممن لا يراه.

وقد كان النبى محمد ﷺ يخبر عن بعض الأمور المستقبلة، كما أعلمه الله تعالى، مثل قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ فِى أَدْنَى الأَرْضِ، وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾ وكإخباره عليه الصلاة والسلام عما يحدث لأمته فى الأزمان المستقبلة، وكإخباره عليه الصلاة والسلام عن فشو الربا فى أمته، مثل قوله عليه الصلاة والسلام: «يأتى على الناس زمان يأكلون فيه الربا» قيل: الناس كلهم يارسول الله؟! قال «من لم يأكله ناله غباره»[1].

---

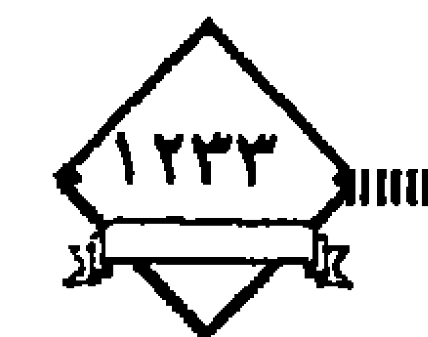
(١) رواه بهذا اللفظ أحمد بن حنبل: باقي مسند المكثرين (١٠٠٠٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه، كما رواه النسائي: البيوع (٤٣٧٩)، وأبو داود: البيوع (٢٨٩٣)، وابن ماجه: التجارات (٢٢٦٩) بنحوه.

هذه المعجزات الأربع وغيرها، هى آية الله تعالى لإثبات رسالة السيد المسيح عليه الصلاة والسلام؛ ولذا قال تعالى بعد ذكرها:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أى إن فى هذه الأمور التى أجراها الله على يد السيد المسيح عليه السلام لآية، أى لعلامة واضحة بيّنة تدل على صدق رسالته، وتثبت دعوته، ويقتنع بها من يريد الاقتناع. وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إيماء إلى أن الذين يقتنعون بالحجج والآيات هم الذين من شأنهم أن يذعنوا للحق، ويخضعوا له؛ فالناس قسمان : قسم يذعن للحق ويؤمن به إن قام الدليل عليه، وأولئك هم الذين من شأنهم الإيمان والإذعان للحق؛ وقسم لا يزيده الدليل إلا عنادا واستكبارا، وأولئك هم الذين من شأنهم أن يجحدوا ولا يذعنوا للحق إذا دعوا إليه؛ ولذلك عبر بالوصف فى قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أى إن كان الإيمان والإذعان للحق شأنا من شئونكم، ووصفا ذاتيا لكم.

وإن هذه المعجزات الباهرة القاهرة التى خضع لها من خضع، وكفر بعدها من كفر، دليل على أن الدليل مهما يكن قويا لا يكفى للإيمان، بل لابد من اتجاه نفسى لطلب الحق من أن يتأشب بالنفس أى داع من دواعى الهوى، أو أى غرض من أغراض الدنيا؛ وأى دليل حسى أقوى فى الدلالة على الرسالة الإلهية من إحياء الموتى، وأن يصور من الطين كهيئة الطير فيكون طيرا بإذن الله، ومع ذلك آمن من آمن، وكفر من كفر، وكان الذين عاندوا أكثر عددا من الذين أذعنوا وآمنوا، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

بعد أن أشار سبحانه إلى الآيات الكبرى التى أجراها على يدى السيد المسيح عليه السلام، أشار إلى رسالته، وهى تتلخص فى أمرين: أنها مصدقة لما جاء فى التوراة مع إحلال لبعض الذى حرم على اليهود فيها، وثانيها: أنه يدعو إلى الإيمان بأن الله خالق كل شىء ومبدعه ومنشئه بإرادته المختارة؛ وهذا ما تضمنه قوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ :



وقوله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ حال من الفعل المحذوف الذى دل عليه العطف، أى أنى جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق، وجئتكم مصدقا لما بين يدى؛ يقال الأمر بين يديه أى أنه حاضر ثابت موجود، وعيسى جاءت رسالته متممة لرسالة موسى ناسخة لبعض ما جاء فيها، كالشأن فى كل نبى بالنسبة لمن سبقه. ولقد بين عيسى عليه السلام لهم أنه جاء بالرفق والسماحة؛ ولذا أحل الله لهم على يديه بعض ما حرم عليهم بظلمهم وقسوتهم وجفوتهم ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ... ﴿١٦٠﴾﴾ [النساء] ولقد قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾[الأنعام]. ذلك لأنهم قست قلوبهم وغلظت أكبادهم، واستناموا إلى الراحة واسترخت أجسامهم، فابتلاهم الله بهذا التحريم لينشطوا ويعملوا، ويكونوا قوة عاملة، ولا يكونوا أجساما مسترخية؛ فلما جاء عيسى عليه السلام، وقد نزل بهم من البلاء ما نزل، أحل الله لهم على لسانه ما كان قد حرم. وقوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ذكرت الآية، لأن جزءا من الرسالة العيسوية إثبات خلق الأشياء بالإرادة المختارة، ومعجزته كلها تتجه نحو هذا الاتجاه، فهى فى ذاتها جزء من دعوته؛ لإثبات قدرة الله تعالى وإرادته فى الخلق والإبداع.

وبعد أن أشار سبحانه إلى ما تضمنته الرسالة العيسوية، ذكر دعوة عيسى لقومه بهذه الرسالة، فقال سبحانه حاكيا قول عيسى لهم:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ كانت دعوة عيسى تتجه إلى هذين الأمرين: تقوى الله تعالى، وأن يطيعوه بأن يتبعوه فى منهاجه الذى رسمه لهم ووجههم إليه تبليغا لرسالة ربه. أما تقوى الله تعالى فكان لابد أن تكون لُباب الدعوة العيسوية؛ لأن اليهود كانوا قد أعرضوا عن الله تعالى إعراضا تاما، حتى لقد كان فريق منهم، وهم الصدوقيون لا يؤمنون باليوم الآخر، وحتى لقد حسب أكثرهم أن العقاب الذى هدد الله به هو العقاب الدنيوى، لا العقاب الأخروى؛ ومن أجل ذلك سرى

فى قلوبهم حب الدنيا والحرص عليها حرصا شديدا أيّا كانت حياتهم فيها؛ ولذا قال تعالى عنهم: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ ... ﴿٩٦﴾ ﴾ [البقرة].

وأما الطاعة لعيسى عليه السلام فبأن يتخذوا منه قدوة حسنة فى زهادته وروحانيته وسماحته، ليخففوا من غلظتهم وقسوتهم. واليهود إلى الآن فى أشد الحاجة إلى مثل هذه الدعوة، وهى التقوى والعفة والسماحة، ولكنهم أجابوا فى الماضى داعى الحق بمحاولة قتله، وكذلك يفعلون الآن، فهم يحاولون قتل من حموهم وآووهم.

ولقد قرر عيسى ـ عليه السلام ـ أن هذه المعجزات الباهرة لا تخرجه عن أنه عبد لله تعالى مخلوق له سبحانه؛ ولذا حكى الله تعالى عنه قوله:

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أى أن الله تعالى خلقنى وهو الذى يربنى ويكلؤنى ويحيينى، وهو أيضا الذى خلقكم وينميكم ويكلؤكم ويحييكم، وإذا كان كذلك فحق علينا أن نعبده وحده ولا نشرك به أحدا سواه، فإن العبادة تكون شكرا لهذه النعمة، وقياما بحقها، وصلاحا لأمر الناس فى هذه الدنيا. وعبادة الله وحده والاعتراف بربوبيته وألوهيته وحده هى الصراط أى الطريق المستقيم الذى لا اعوجاج فيه، اللهم اهدنا إلى سواء السبيل.

۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾

هذا القصص الحكيم مستمر فى قصة عيسى، وقد انتقل فى الآيات السابقة من بشارة مريم بأن تكون المختارة لتكون منها الآية الكبرى وهو أن يولد منها ولد هو إنسان حيّ يأكل ويشرب وينمو من غير أب ينجبه، إلى ملاقاة قومه له وتكذيبه؛ ولم يكن ذلك الانتقال مفاجئا من غير تمهيد بل مهد له، فأشار فى البشارة إلى مقامه ورسالته وآيته الباهرة القاهرة؛ وبهذا علم القارئ الذى يتلو كتاب الله من السياق رسالته والمعجزات التى تحدى بها قومه أن يأتوا بمثلها؛ وعلى ذلك لم يبين فى هذا الموضع ولادة عيسى عليه السلام، وحال مريم عند ولادته، وتكلمه فى المهد صبيا، وبين ذلك فى سورة مريم فى قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم].

ففى سورة مريم فصل خبر ولادته، وفى هذه السورة فصل الآيات التى أثبت بها نبوته، وكان هذا مناسبا لما يجىء بعد ذلك من ملاقاة قومه لدعوته إلى الله، وإقامته الآيات التى تدل على رسالته، فقال :

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ هذا النص الكريم كان معقبا للآيات الباهرة من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وتصوير الطين كهيئة الطير فيكون طيرا بإذن الله. وتعقيبه لهذه الآيات، وكون الكثرة لم يكونوا مؤمنين كما يشير النص، يدل على أن الآية مهما تكن باهرة قاهرة لا تحمل

الجاحدين الذين غلفت قلوبهم دون نور الهداية على الإيمان، والفاء هنا كأنها فاء التعقيب على الآيات الباهرة، أى أنهم فور هذه الآيات كفروا ولم يتدبروا، وأحس منهم عيسى هذا الكفر، فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله. والإحساس هو العلم الذى يكون بالحواس، وإطلاقه على العلم المجرد بعد ذلك من قبيل تشبيه العلم اليقينى القاطع البدهى بالعلم المدرك بالحواس.

ولما أحس عيسى الذى أوتى هذه البينات الكفر من قومه، وعلم ذلك علما يقينيا، اتجه إلى من يدعوهم يتعرف من أصاب الإيمان قلبه ليتخذ منهم قوة للدعوة وليكونوا صورة للمهتدين الصادقين؛ ولذلك قال: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أى من الذين رضوا أن يكونوا أنصارى لأواجه بهم الذين يحاربون دعوتى، على أن يكون أولئك الأنصار منصرفين متجهين إلى الله تعالى لا يبغون غير رضاه، **وهذا التعبير الكريم فيه إشارة إلى معان ثلاثة:**

أولها: أن الأكثرين لم يكونوا مؤمنين؛ ولذلك عبر بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ فنسب الكفر إليهم، وذلك لا يكون إلا إذا كان الكافرون هم الكثرة الظاهرة، والمؤمنون هم القلة المغمورة، حتى بحث عنهم السيد المسيح عليه السلام بقوله: من أنصارى إلى الله تعالى.

المعنى الثانى: الذى يشير إليه النص الكريم: أن السيد المسيح عليه السلام أحس بأنه أصبح مقصودا بالأذى، وأن الدعوة الحق أصبحت مهاجمة من تلك الكثرة الساحقة؛ ولذلك طلب أن يكون له نصراء يجعلون للحق منعة وقوة من جهة، ويكونون مدرسة الدعاية له، والخلية التى تدرس فيها حقائقه من جهة أخرى.

المعنى الثالث: الذى يشير إليه النص: هو أن النصرة الحقيقية فى مثل هذا المقام أساسها إخلاص النية لله تعالى، والاتجاه إليه، وتفويض الأمور إليه، فإنهم إن كانوا قليلا فهم بمعونة الله كثيرون ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج] ولذلك كان فى سؤال السيد المسيح عليه السلام إضافة النصراء

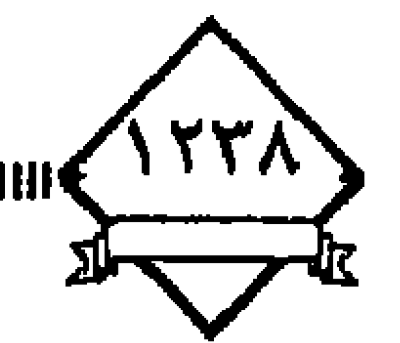
إلى الله، فقال: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ وقد قال فى ذلك الزمخشرى: «إلى الله من صلة أنْصارى مضمنا معنى الإضافة، كأنه قيل: من الذين يضيفون أنفسهم إلى الله ينصروننى كما ينصرنى، أو يتعلق بمحذوف حالا من الياء، أى من أنصارى ذاهبا إلى الله أو ملتجئا» والأوضح فى نظرى أن يكون المحذوف حالا من الأنصار أنفسهم أى من أنصارى حالة كونهم متجهين ملتجئين إلى الله تعالى، وفى هذا طمأنة لهم بأن نصرته هى نصرة الله، وأن الذين ينصرونه يلتجئون إلى جانب الله تعالى، يعتمدون عليه، فهم إذا كانوا للحق منعة، فى عزة من الله ومنعة منه، وإن دعوة الحق لابد أن تجد نصيرا وإن طغى الباطل واشتد؛ ولذلك أجيب عيسى عليه السلام من المخلصين من قومه:

﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ الحواريون هنا هم أنصار عيسى عليه السلام الذين أخلصوا له ولازموه، وكانوا عونه فى الدعاية إلى الحق بعد الله تعالى الذى أمده بنور من عنده. وأصل مادة (حَوَر): هى شدة البياض، أو الخالص من البياض، ولذلك قالوا فى خالص لباب الدقيق: الحوَّارَى، وعلى النساء البيض: الحواريات، والحوريات؛ وعلى ذلك يكون تسمية صفوة الرجل وخاصته حوارى؛ لأنهم أخلصوا له، ولأنهم لُباب الناس بالنسبة له، وكذلك كان حواريو عيسى عليه السلام؛ فقد كانوا خاصته، والذين صفت نفوسهم، وخلصت من أدران الدنيا وأهوائها كما يخلص الثوب الأبيض الناصع البياض من كل ما يشوبه.

أجاب أولئك الحواريون عيسى عليه السلام عندما أخذ يبحث عن النصراء ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ وهم بذلك بينوا اهتداءهم لأمرين:

أولهما: أنهم علموا أنه يتكلم عن الله تعالى وأنه رسول أمين؛ ولذلك اعتبروا إجابة دعوته هى من إجابة دعوة الله، وأنهم إذا كانوا نصراءه فهم نصراء الله تعالى؛ ولذا قالوا: نحن أنصار الله، ولم يقولوا نحن أنصارك.

الأمر الثانى: أنهم فهموا أن نصرته تكون بإخلاص النية لله تعالى، وتصفية نفوسهم من كل أدران الهوى، حتى تكون خالصة لله تعالى، ولذلك أردفوا قولهم هذا بما حكاه سبحانه وتعالى عنهم بقوله تعالى:



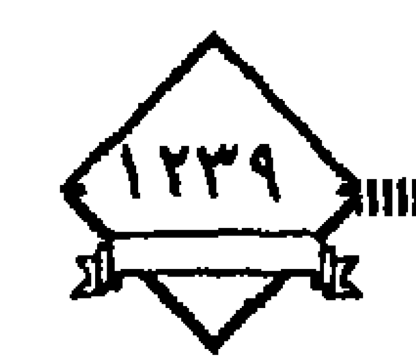
﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ فهذا النص الكريم يفيد مقدار إدراكهم لمعنى نصرة الله تعالى ونصرة رسوله عيسى عليه السلام؛ قالوا ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ أى آمنا بأنه الواحد الأحد الفرد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، وأنه خلق الأشياء بإرادته المختارة، وبقدرته الفعالة، ولم توجد عنه الأشياء وجود المعلول عن العلة، والمسبب عن السبب، كما كان يدعى بعض الفلاسفة فى عصرهم، وأردفوا قولهم بما يدل على الإذعان المطلق لله تعالى، وإخلاص نياتهم وقلوبهم له سبحانه بقولهم: ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾. الشهادة هنا بمعنى العلم المنبعث من المعاينة والمشاهدة، فهم يطلبون من سيدنا عيسى أن يعلم علم معاينة بأنهم مسلمون أى مخلصون قد أسلموا وجوههم لله رب العالمين، وصاروا بتفكيرهم وقلوبهم وجوارحهم لله تعالى، وإن ذلك فوق أنه إعلام لحقيقة نفوسهم هو إشهاد من قبلهم بما خلصت به أرواحهم.

خاطبوا بهذا الخطاب نبى الله تعالى مجيبين دعوته، ملبين نداءه، معلنين نصرته، ثم اتجهوا بعد ذلك إلى الله تعالى ضارعين إليه قائلين:

﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ وقد صدروا ضراعتهم إلى الله تعالى بالاعتراف الكامل بالربوبية، وفى الاعتراف بالربوبية إحساس صادق بجلال النعم، وتقديم شكر المنعم، ثم الاعتراف بالربوبية الحق يطوى فى ثناياه الاعتراف بالألوهية الحق؛ لأن كمال الخضوع لله لا يكون إلا بالإيمان بالربوبية، ووراء هذا كله الإفراد بالعبودية، ثم بعد الضراعة بلفظ الربوية أعلنوا الخضوع والإذعان الكامل، فقالوا: ﴿آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ﴾ أى صدّقنا تصديق إذعان وتسليم وهداية بما أنزلت. وما أنزل الله تعالى على عيسى عليه السلام هو تكليفات؛ فالإيمان الصادق بها يقتضى العمل ؛ لأن العمل يدل على كمال الإيمان، ولأن المخالفة من غفوة الإيمان، ومن قبيل ذلك قول محمد ﷺ: «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن»[1]. وقد تأكد ذلك المعنى وهو العمل بمقتضى ما أنزل لهم بعد ذلك فى

---

(١) سبق تخريجه.



ضراعتهم ﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ وهو عيسى عليه السلام، واتباع الرسول يكون بالعمل بهديه، والأخذ بسنته.

وإذا كانوا قد ضرعوا إلى ربهم بهذا الإيمان تلك الضراعة، فقد اتجهوا مع ذلك إلى دعائه راجين بإجابته أن يقوى الله سبحانه وتعالى إيمانهم، وأن ينقلهم من الإيمان الغيبى إلَى الإيمان الذى يصل إلى درجة تشبه المشاهدة؛ ولذا قالوا:

﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أى إذا كنا قد امتلأت قلوبنا بربوبيتك، وألوهيتك وعبوديتك فارفعنا إلى مرتبة أعلى هى أن نكتب مع الشاهدين؛ ومن هم الشاهدون؟ يصح أن نقول إنهم الذين صفت نفوسهم وزكت مداركهم، حتى وصلوا إلى درجة العلم الذى يكون كعلم المشاهدة والرؤية، الذين قال فى أمثالهم محمد ﷺ: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1] فهذه مرتبة من الإيمان، والمعرفة أعلى من مجرد الإيمان. ويصح أن تسمى هذه المرتبة مرتبة الشهود أو المشاهدة التى يقول عنها الصوفية، فالمؤمن يتعبد، ويصفى نفسه من أدران الدنيا، حتى يصبح كأنه يشاهد الله رب العالمين فى أعلى ملكوته، ويحس فى كل فعل يفعله كأنه فى حضرته العلية كمن يعاينه.

وإن النص الكريم يدل على وجود ذلك الصنف من العباد الأصفياء الأتقياء الأبرار، وأنهم فى أعلى درجات اليقين، بدليل أن هؤلاء الأتقياء طلبوا أن يكونوا فى هذا الصنف، وحكى العلى القدير للأجيال طلبهم الذى رشحهم له فرط ضراعتهم وتقواهم، وأولئك الشاهدون هم الأنبياء والصديقون والشهداء.

أحس عيسى عليه السلام بحدة كفر الكافرين، وشدة نضالهم؛ ولذلك اتجه إلى أن يكون له دعاة مناصرون أطهار، تكون منهم مدرسة الحق، وأخذ يبث تعاليمه فى تلاميذه، وينتقل فى أراضى بيت المقدس وجبالها وآكامها هاديا مرشدا باعثا الأرواح إلى الإيمان بالحق، ولكن جحدوا بالحق بعد أن ظهرت أماراته،

---

(١) سبق تخريجه.

وقامت بيناته، ثم أخذوا يَحولون بينه وبين هدايته، ودعوة الحق التى يدعو بها، ولما رأوا أن نور الحق يزداد انتشارا، قرروا أنه لابد أن يقطعوا حركته نهائيا بتدبير الشر لشخصه. ويستفاد من الإشارات القرآنية أنهم حاولوا قتله، ولا عجب فقد قتلوا يحيى بن زكريا عليه السلام الذى عاصره. ولا يستغرب على اليهود عمل فاجر، فهم فى ماضيهم كما نراهم اليوم فى حاضرهم، ولقد قال تعالى بعد أن بلغت دعوة الحق أقصاها وأعلاها ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾:

أى أن هؤلاء الذين أحس عيسى عليه السلام منهم الكفر، ورآه عيانا منهم بعد أن كوّن فيهم مدرسة الهداية بالحواريين، وأخذوا يدبرون التدبير للقضاء عليه أو على دعوته. والمكْر، كما يظهر من عبارات القرآن: هو التدبير الذى يجتهد صاحبه فى إخفائه عمن يمكر به؛ ولذا نسب المكر إلى الله تعالى، ولا يمكن أن يكون عمل الله تعالى إلا خيرا، ولذا ذكر المكر موصوفا بالسوء فى قوله تعالى: ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ... (٤٣)﴾ [فاطر] فدل هذا على أن مطلق المكر لا يعد سوءا، مكر الفجار لإيذاء الأبرار لا يمكن أن يكون خيرا، ومكر الله تعالى لإحباط تدبير الأشرار لا يتصور إلا أن يكون خيرا. وقد قصر بعض المفسرين المكر على التدبير السيئ، وسمى تدبير الله لإحباط تدبيرهم مكرا من قبيل المشاكلة ورد الفعل بمثله وإن لم يكن له وصفه، كتسمية رد الاعتداء اعتداء فى مثل قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ... (١٩٤)﴾ [البقرة] وما هو إلا عمل عدل ولكن سمى به للتماثل بين الفعلين فى الواقع ليتحقق الدفاع العادل.

دبر أولئك قتل عيسى عليه السلام كما قتلوا يحيى، فكانوا - لاستيلاء الفساد على قلوبهم - قد أصابهم شره لدماء الأطهار دبروا ذلك، والله يدبر حمايته، وقد تم ما أراد الله تعالى؛ ولذا قال تعالى:

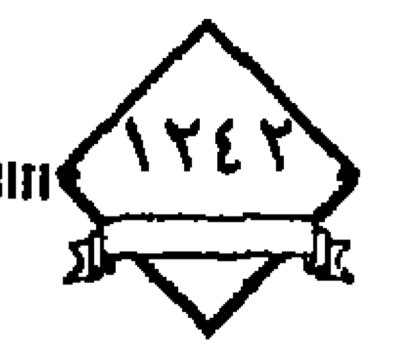
﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ فسرها بعض المفسرين بأن الله سبحانه لا يصدر عنه إلا الخير، فمكره خير مكر لأنه لا يتصور فيه شر قط. وفسر الزمخشرى قوله:

﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ بقوله: أقواهم مكرا، وأنفذهم كيدا، وأقدرهم على العقاب من حيث لا يشعر المعاقب؛ وذلك كلام مستمد من ذوق بيانى رائع والله من وراء كل من يدبر الشر للأطهار، وهو الذى يحفظ بعلمه وقدرته الأبرار، ربنا هيئ لنا من أمرنا رشدا.

إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾

هذه الآيات موصولة بالقصص السابق، والذى تدل عليه الآيات قبلها هو أن معركة قائمة بين الخير والشر؛ فعيسى عليه السلام ينادى أنصاره إلى الله تعالى، ويجيبه الحواريون بالإيمان والإخلاص والاستعداد للابتلاء فى سبيل إيمانهم ونصرتهم للسيد المسيح عليه السلام، والشر يدبِّر التدبير السيِّئ، والله من ورائهم محيط، يدبر الخير ويهدى إليه ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ وفى هذه الآيات يبين سبحانه خيبة تدبيرهم ونجاته عليه السلام من شرهم، وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾:

والمعنى: اذكر يا محمد للعظة والاعتبار قصص عيسى بن مريم، إذ قال الله تعالى له فى نداء رحيم منجيا له من أذى اليهود الذين كانوا ولا يزالون أعداء لكل



خير، أنصارا لكل شر: ﴿يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ والمعنى المتبادر من هذا النص الكريم أن الله تعالى توفى عيسى كما يتوفى الأنفس كلها، وأنه رفع مكانته برفع روحه إليه سبحانه وتعالى، كما ترفع أرواح الأنبياء إليه سبحانه وتعالى، هذا ظاهر هذا النص، ولكن جاءت نصوص أخرى يفيد ظاهرها أن الله تعالى رفعه بجسده إليه سبحانه؛ فقد قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء] فظاهر هذا النص أن الله تعالى رفعه إليه بجسمه؛ لأنه مقابل بالقتل والصلب، ولا يصلح مقابلا لهما رفعه بالروح؛ لأنه يجوز أن يجتمع معهما، ويؤيد هذا ما ورد فى صحاح السنة من أن عيسى عليه السلام سينزل إلى الأرض فيملؤها عدلا، كما ملئت جورا وظلما؛ فقد روى مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «والله لينزلن ابن مريم حكما عادلا فليكسرنَّ الصليب، وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية، ولتُتركنّ القلاص[1] فلا يسعى عليها، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد، ويدعون إلى المال فلا يقبله أحد»[2] فإن ظاهر هذا الحديث يفيد أنه ينزل بجسمه من الملكوت الأعلى.

وإزاء تعارض ظواهر النصوص على ذلك النحو، كان لابد من تأويل جانب منها لتكون ثمة مواءمة بينه وبين الأخرى؛ ففريق من العلماء وهم الأقل عددا، أجروا قوله تعالى فى الآية الكريمة التى نتكلم فى معناها على ظاهرها وأولوا ما عداها؛ ففسروا قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ بمعنى مميتك ورافع منزلتك وروحك إلىّ، فالله سبحانه وتعالى توفاه كما يتوفى الأنفس كلها، ورفع روحه كما يرفع أرواح النبيين إليه.

---

(١) جاء فى الهامش: القلاص جمع قلوص وهى الناقة، ولعل المعنى أن ابن آدم يتجرد للروحانية.

(٢) متفق عليه، وقد رواه بهذا اللفظ عن أبي هريرة - رضي الله عنه - مسلم: الإيمان - نزول عيسى ابن مريم حاكما بشريعة نبينا (٢٢١)، وبه رواه أحمد: باقي مسند المكثرين (١٠٠٠١)، ورواه البخاري: البيوع - قتل الخنزير (٢٠٧٠).

وإذا كان أصحاب هذا الرأى قد فسروا الآية على ذلك الظاهر، فقد قرروا أنه لا معارضة بينها وبين الأحاديث التى تفيد النزول؛ لأنها تدل على مجرد العودة إن أخذناها بظاهرها، وليس الله سبحانه وتعالى بعاجز عن أن يرد روحه إلى جسمه، وهو الذى يُحيى العظام وهى رميم، وكما قال تعالى: ﴿... كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأعراف] وفضلُ عيسى عليه السلام أنه عاد إلى جسده قبل أن يعود غيره إلى جسده، هذا إذا قبلت هذه الأحاديث بظاهرها من غير تأويل، ومن غير نظر إلى سندها وكونها أخبار آحاد لا يؤخذ بها فى الاعتقاد.

وأما التوفيق بين الآية الكريمة وبين قوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ فإنه فى نظر أصحاب ذلك النظر لا يحتاج إلى عناء فى التأويل؛ لأن الإضراب الذى تضمنته «بل» إضراب عن القتل والصلب، وليس إضرابا عن الموت الطبيعى، وكونه لا يقتل ولا يصلب لايقتضى أنه لايموت موتا طبيعيا، والتعبير بقوله: ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ فيه إشارة إلى معنى الكرامة والإعزاز والحماية، وأنه تعالى حاميه منهم، ومانعه دونهم، وأنهم لن يتمكنوا من رقبته؛ إذ إن الذى يحميها هو خالق الكون، وخالق القدر.

هذا هو التفسير الأول للآية الكريمة، وهو الذى يجريها على ظاهرها من غير أى تأويل، ويقرر أنه إن كان لابد من تأويل فهو فيما يعارض ظاهره ظاهرها، على أن التوفيق فى ذاته ممكن من غير تأويل بعيد أو قريب، إذ الظاهر أن التفسيرين فى نظرهم غير متعارضين، والتوجيه الصحيح لمعانيها يجعلها متلاقية غير متنافرة وإن التأويل إنما يكون بترك ظاهر الآية الكريمة: ﴿مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾.

والتفسير الثانى: يقرر أن الرفع بالجسم لا بالروح فقط، وأن عيسى حىّ فى السماء، وأن الأرض قد خلت منه ليعود إليها فيملؤها عدلا، بعد أن ملئت جورا؛ وإن أصحاب هذا الرأى وهم الأكثرون ويحتاجون بلا ريب إلى تأويل هذه الآية، ولهم فى التأويل طرق مختلفة، منها أن قوله ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ ليس معناها مميتك، بل

معناها هو المعنى اللغوى الأصلى؛ إذ إن التوفِّى فى اللغة أخذ الشىء وافيا تاما، والمراد فى نظرهم أنِّى موفيك حياتك كلها فى الدنيا على الأرض ببقائك فيها، ثم رافعك إلى السماء تستوفى حظك من الحياة هناك. ولكن يعارض هذا التأويل أن القرآن له استعمال فى العبارات يخصصها، وقد خصص هذا اللفظ بالموت، كما خصصته اللغة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿والله يَتَوفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ... ﴿١١﴾﴾ [السجدة].

ومن التأويلات: أنهم فسروا الوفاة بمعنى النوم باعتبار أن النوم هو الموتة الأولى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ... ﴿٦٠﴾﴾ [الأنعام]. والمعنى على هذا منومك نوما عميقا، ثم رافعك فى أثناء هذا النوم إلىَّ.

ومن التأويلات: ماذكره القرطبى بقوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ على التقديم والتأخير؛ لأن الواو لا توجب الرتبة، والمعنى إنِّى رافِعُكَ إلىّ ومطَهِّرُك من الذين كفروا ومتوفيك بعد أن تنزل من السماء، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾ [طه]، والتقدير ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما[1] أى أن الوفاة ستكون، وليست سابقة على الرفع، بل هى متأخرة عنه، أى أنه عليه السلام يموت بعد أن ينزل إلى الأرض ولا شك أن هذا ضرب من التأويل، وليس ظاهر النص.

ذانك نظران فى تفسير الآية الكريمة، أولهما يعتمد على ظاهر الآية الكريمة، وعلى أنه لا تعارض بين هذا الظاهر وظواهر النصوص الأخرى، ومنهم من يقف من أحاديث نزوله إلى الأرض موقف المستفهم؛ لماذا اختص عيسى بهذا؟ ولماذا لا يكون هذا لنبينا محمد ﷺ؟ ويخشى أن يكون ذلك من دس النصارى، وكم دسوا فى الإسلام؛ ولقد كان فى عصر التابعين يوحنا الدمشقى فى بلاط بنى

---

(١) أحكام القرآن للقرطبى جـ٤ ص٩٩.

أمية يؤلف الجماعات السرية التى تدس الآراء والأفكار التى من شأنها أن تفسد عقائد المسلمين.

أما النظر الثانى فاعتماده الأكبر على الأخبار التى وردت بنزول عيسى عليه السلام وأوَّلَ من أجلها هذه الآية الكريمة، مع أن الأخبار أحاديث آحاد، وأولئك هم الأكثرون كما قلنا.

﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ التطهير معناه إزالة الأدران والخبائث، والله سبحانه وتعالى طهر المسيح عليه السلام من الآثام التى حاول أن يلصقها به وبأمه اليهود ومن جاءوا بعده ممن ادعوا اتباعه وهم لم يتبعوه، وأبدى سبحانه وتعالى للملأ من اليهود طهر أمه وعفتها ونزاهتها، كما أبدى روحانيته وسلامته مما رماه به من عادوه وأفرطوا فى عداوته، وما رماء به من أحبوه وأفرطوا فى محبته حتى حسبوا أنه إله أو ابن إله، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا. هذا تطهير الله لعيسى عليه السلام، ولقد طهره أيضا بأن لم يمكن اليهود والرومان من صلبه ومن قتله بل شُبِّه لهم، ونجاه الله تعالى من كيدهم؛ وهكذا طهّر الله عيسى من كل رجس معنوى أو حسى، ومن كل أذى حسى أو معنوى.

ولقد جعل الله سبحانه وتعالى الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة، وهنا يسأل القارئ لكتاب الله: من هم الذين اتبعوه؟ ومن هم الذين كفروا به؟ وما هذه الفوقية التى تكون للذين اتبعوه؟

ليس الذين اتبعوه هم الذين قالوا إنا نصارى أو نحن نتبع المسيح وكانوا يزعمون أنه ثالث ثلاثة أو ابن الله؛ لأنه ما قال هذا وما ادعاه، ولكنه جاء بالتوحيد، والإيمان بالله العلى القدير وحده؛ وإنما الذين اتبعوه هم الذين آمنوا به، وبأنه رسول من رب العالمين، وبأنه بشر كسائر البشر، وأن تعاليمه هى العدالة، والرحمة، والسماحة، والإخلاص فى طلب الحق وعبادة الله تعالى كما أمر الله؛ ولذلك لم يجانب الحق من قال إن أتباعه هم المسلمون، لأنهم هم الذين

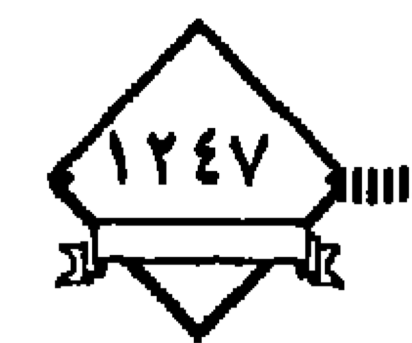
يؤمنون برسالته حق الإيمان من غير إفراط ولا تفريط، ومن غير أن يتجاوزوا به قدره الذى قدره الله تعالى له وسواه عليه.

والفوقية ليست هى القوة؛ فإن الأسد أقوى من الإنسان، ولكنه ليس فوقه ولا أعلى منه، بل الفوقية هى فوقية الإدراك والإيمان والإخلاص؛ وذلك لأن سبب الفوقية هو الاتباع، والمسبب من جنس السبب، فالسبب معنوى روحى، فالفوقية روحية معنوية، فليست الفوقية إذن فوقية سيف وسنان، بل فوقية حجة وبرهان. ولقد قال الزمخشرى فى ذلك: «يعلونهم بالحجة، وفى أكثر الأحوال بها وبالسيف، ومتبعوه هم المسلمون؛ لأنهم متبعوه فى أصل الإسلام، وإن اختلفت الشرائع، دون الذين كذبوه، والذين كذبوا عليه من اليهود والنصارى»[1].

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ إن الفوقية التى أشرنا إليها هى فوقية الحجة القوية الثابتة عن النظر بعين الحق السائغ، والقسطاس المستقيم، وإن هذه الحجة قائمة فى الدنيا إلى يوم القيامة، حتى إذا انتهوا إلى ذلك اليوم المعلوم المقطوع بأنه سيقع لا محالة، يكون الاحتكام بها إلى الحكم العَدْل العليم؛ ولذا قال سبحانه: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أى إلىّ رجوعكم ومآبكم، وإذا كان المرجع إلى الله والمصير إليه سبحانه وهو العليم بكل شىء، فهو الذى يحكم بينهم فيما كانوا يختلفون فيه، وحجة بعضهم فوق حجة الآخرين، فالفاء فى قوله تعالى: ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ هى التى تسمى فاء الإفصاح؛ لأنها تُفْصِح عن شرط مقدر، وقد ذكرناه فى مطوى كلامنا. ولقد بين سبحانه وتعالى بعض الحُكم مفصلا فى قوله تعالى:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ هذا هو الجزء الأول من الحكم، وهو عذاب الذين كفروا، وفى التعبير بالموصول إشارة إلى أن سبب العذاب هو كفرهم، وقد أكد سبحانه وتعالى شدة

(١) الكشاف: جـ١ ص١٩٢.



العذاب بعدة تأكيدات، أولها: بنسبة التعذيب إليه، وهو القوىّ القهّار الغالب على كل شىء، وفيه إشعار بعدالة العذاب عدالة مطلقة، وثانيها: بالتأكيد بالمصدر، وثالثها: بالوصف بالشدة، ورابعها: بعدم رجائه إنهاءه أو إزالته؛ إذ لا يوجد لهم من ناصر؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ وهو نفى مؤكد مستغرق، أى ليس لهم من ناصر أيا كان هذا الناصر، وأيا كانت نصرته، ولو كانت ضئيلة.

ولقد ذكر أن العذاب فى الدنيا. وفى الآخرة؛ أما عذاب الآخرة فالأمر فيه إلى الله تعالى العلى القدير، وأما عذاب الدنيا بالنسبة لمن كذبوا المسيح من اليهود فهو هذه الذلة والتفريق فى الأرض، ومهما يحاول الكافرون أمثالهم لهم من معاونة فإن حبلها مقطوع بعون الله تعالى العلى القدير ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء] وأما النصارى فإن العذاب الذى هم فيه يبدو للناظر الفاحص من اختلافهم فيما بينهم، وتفرقهم أحزابا وشيعا، وجعل بأسهم بينهم شديدا، وهذه هى الحروب بينهم مستمرة مفنية مدمرة، وأى عذاب أشد من هول الحروب التى وقعت بينهم فى الحربين العالميتين السابقتين!! فكم من دماء أهرقها أولئك الذين كفروا بالمسيح فيما بينهم، وأى ذرية أبادوها، وكم من العمران خربوه!! ولا يدرى إلا الله ما سيكشف عنه المستقبل من عذاب شديد يعده بعضهم لبعض، حتى يصيروا فى نهايتهم بورا.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾

هذا هو الجزء الثانى من الحكم وهو جزاء الذين آمنوا، وقد ذكر جزاءهم الحكيم العليم بأنه يوفيهم أجورهم أى جزاءهم على ما قدموا من أعمال استحقوا عليها ذلك الجزاء، وهو النعيم المقيم؛ وقد جعل ذلك الوفاء وهذا الجزاء مبنيا على أمرين، أحدهما: إيمان صادق، والثانى: عمل صالح، فهما اللذان نيط بهما الجزاء، وفى الحق إن الإيمان الصادق يتبعه العمل الصالح، وليس بمؤمن حق الإيمان من يتخلى عمله عن اعتقاده، ولم يذكر سبحانه وتعالى نعمته فى ثوابه، وهو المنعم دائما المتفضل بالثواب؛ للإشعار بأن إنعامه سبحانه منوط بعمل،

ولْيُعلمْنا العدالة بأن نربط الجزاء بالعمل. ثم ذيل سبحانه وتعالى الآية بقوله: ﴿واللهُ لا يُحبُّ الظَّالِمينَ﴾ لإعلان عدالته ولإثبات أن الكفر والظلم قرينان، وأن الإيمان والعدل متلازمان، ولبيان استحقاق الذين آمنوا وعملوا الصالحات لما أعطوا من ثواب ونعيم مقيم. ولقد ختم الله سبحانه وتعالى قصص عيسى بقوله تعالى:

﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ ذلك القصص الذى ذكرت فيه قصة آل عمران، وقصة مريم وولادتها وزكريا ونداءه وإجابته، وعيسى وروحانيته وآياته الباهرة، نتلوه، أى نقصه عليك بعضه تلو بعض فنتلوه فى بيان رائع، وهو من الآيات البينات المثبتة لرسالتك، فما كنت لديهم إذ حدثت هذه الوقائع الثابتة التى لا مجال للريب ولا للشك فى صدقها، وما كنت تقرأ فى كتاب، ولا تلقيته بيمينك، إنما هو وحى به إليك لتثبت به رسالتك، وتؤيد به دعوتك، وهذا القصص مع دلالته على نبوتك هو فى ذاته يحمل العظة والاعتبار؛ ولذلك كان هو من ﴿وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ أى الذكر الذى يربى الحكمة فى القلوب التى تقرأ وتعى وتدرك، إذ هو يذكر القارئ بأن الأدلة مهما تكن قوتها لا تجعل الضال يهتدى ما لم يفتح قلبه لها، فالأدلة كالنور لا يراه إلا من له بصر يبصر به، اللهم افتح قلوبنا لإدراك الحق والإيمان، إنك على كل شيء قدير.

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾

فى الآيات السابقة بيَّن الله سبحانه وتعالى كيف كان الحمل بعيسى، وما أجراه الله تعالى على يديه من معجزات، وكيف كان عبدا من عباده الصالحين، وذكر دعوته إلى ربه، ومعاداة قومه له، وتقدم الحواريين ليكونوا أنصاره إلى الله، وكيف مكر القوم به وأحبط الله مكرهم، ثم توفاه سبحانه، ورفعه إليه، وجعل فوقية للذين اتبعوه فى هدايته، فآمنوا بوحدانية الله وبرسالته، وليس منهم قطعا أولئك الذين قالوا إنا نصارى وادّعوا ألوهيته، أو أنه ابن الله، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

وإنه فى هذه الآيات يبين الله سبحانه وتعالى حقيقة تكوين عيسى، ويزيل وجه الغرابة فى ولادته، وأن الله تعالى لا يتقيد بالأسباب والمسببات؛ لأنه خالق كل شيء، وهو الفاعل المختار، يخلق الأشياء بإرادته واختياره، ولا تصدر عنه المخلوقات صدور المعلول عن علته، كما يتوهم الماديون الذين عاصروا عيسى عليه السلام، والذين يعاصروننا اليوم، وإن الله سبحانه كما خلق الإنسان الأول آدم من غير أب ولا أم، فكذلك خلق عيسى من غير أب، وهو سبحانه ذو القوة المتين. ولقد بين سبحانه هذه الحقيقة بقوله:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾ يبين الله بهذا النص الكريم مكان خلق عيسى عليه السلام من قدرته سبحانه وتعالى، بجوار خلق آدم من تراب؛ فالله سبحانه وتعالى خلق آدم من تراب، أى من غير أب ولا أم، ومن مادة ليس من شأنها أن يكون منها إنسان حى ينطق ويتكلم، وقد تعلم الأسماء والأشياء كلها؛ ومعنى النص الكريم: إن حال عيسى فى تصويره وتكوينه من غير أب بالنسبة لقدرة الله تعالى كحال آدم صوره وكونه من طين.

وفى هذا التمثيل احتجاج على النصارى الذين ألَّهوا المسيح عيسى ابن مريم لأنه خلق من غير أب، واعتبروه ابن الله **والاحتجاج من وجهين:**

أولهما: أنه إذا كان خلق عيسى من غير أب مسوغا فى زعمهم لأن يكون إلها أو ابن إله، فأولَى بذلك ثم أولَى آدم؛ لأنه خلق من غير أب ولا أم، ولا

أحد من الناس ادعى ألوهية آدم لهذا السبب فيبطل حينئذ ذلك الزعم الباطل لانهيار الأساس الذى قام عليه.

ثانيهما: أن الله سبحانه وتعالى إذا كان قادرا على خلق إنسان حيّ من غير أب ولا أم، ومن مادة ليس من شأنها أن يتكون منها إنسان حى، فأولى أن يكون قادرا على خلق إنسان من غير أب، ومن أم هى إنسان يلد ويحيا ويموت، وهى وعاء لحياة الإنسان وهو جنين؛ وإذا فلا غرابة فى خلق عيسى من غير أب، وما كان يصح أن يكون هذا دافعا لهذا الضلال المبين.

والنص الكريم فوق ما تضمنه من حجة دامغة تقطع دعوى المبطلين، هو بيان لقدرة الله تعالى العلى القدير فى خلق الأحياء وخلق الأشياء، من حيث إنها تخلق بإرادته المختارة، وأنه بهذه الإرادة يخلق الحيّ من غير الحيّ، ويخلق الحيّ على غير النظام الجارى فى مجرى العادات، وما نسميه طبائع الأشياء فى التكوين والتوالد، ولا تصدر عنه الأشياء كما يصدر المعلول عن علته، وإلا ما كان من الطين إنسان حى ناطق هو أبو الخليقة آدم عليه السلام. ولذا بين سبحانه بعد ذلك عظم إرادة الله تعالى فى خلق آدم:

﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ هذا تصوير لخلق الله تعالى آدم من تراب، أراد سبحانه وتعالى أن يكون فصوّره من طين، ثم قال له لما صوره آمرا له أمرا تكوينيا «كُن» فكان. وهذه الجملة السامية تصور خلق الله سبحانه وتعالى للأشياء الأحياء وغير الأحياء، فليست إلا أن تتجه الإرادة إلى تكوينها، فيكون الأمر التكوينى، وتكون الاستجابة التكوينية، ويكون الأمر كما أراد سبحانه. وقال سبحانه وتعالى بالنسبة لخلق آدم عليه السلام: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ ولم يقل كن فكان، وهو المناسب للماضى، وذلك لأن التعبير بالمضارع دائما فيه تصوير وإحضار للصورة الواقعة كما وقعت، ومن جهة أخرى فصيغة المضارع فى هذا المقام تنبئ عما كان، وتومئ إلى ما يكون بالنسبة لخلق الله تعالى المستمر فى المستقبل كما كان فى الماضى وقد بين سبحانه أن هذا هو الحق الثابت المستمر، فقال:

﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أى هذا الذى أخبرك الله به سبحانه من أن عيسى خلق من غير أب، وكونه كذلك، وكون خلق آدم من طين، وكون هذا التكوين العام هو بإرادة مختارة، لا قيد يقيدها، وأنها خالقة الأسباب، هذا هو الحق، والحق هو الثابت اليقينى الذى لا مجال للشك فيه. وقد أكد سبحانه وتعالى كونه الحق الذى لا مجال للريب فيه بثلاثة تأكيدات:

أولها: بتعريف كلمة الحق بأل، فإن مؤدى ذلك أن خلق الله بإرادته المختارة على النحو الذى بينه هو الحق وحده، ولا حق سواه.

ثانيها: أنه بين أن إثبات ذلك الحق هو من ربك الذى ذرأك وحفظك، وفى ذلك مايدل على صدق الإثبات صدقا لا ريب فيه.

ثالثها: أنه نهى عن الامتراء والشك فى ذلك الحق، فقال سبحانه: ﴿فَلا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أى أنه لا مجال فيه للشك، أو للجدال والمراء المثير للشك. والخطاب موجه إلى النبى ﷺ مع أن النبى ﷺ لا شك عنده، وكان كذلك لإثارة الاهتمام والاتجاه إليه، وبيان أنه لا موضع فيه للجدل والامتراء، فيكون الاطمئنان إلى الحق المبين، وإذا كان هذا دعوة للنبى إلى الابتعاد عن الامتراء فغيره أولى بأن توجه إليه الدعوة القاطعة لكل ريب.

والامتراء: هو الشك الذى يدفع إلى المراء والمجادلة المبنية على الأوهام لا على الحقائق ولذلك قال الراغب الأصفهانى فى معنى الامتراء ما نصه: «المرية التردد فى الأمر، وهو أخص من الشك، قال تعالى: ﴿وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ... (٥٥)﴾ [الحج] ﴿فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ ... (١٠٩)﴾ [هود] ﴿فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ... (٢٣)﴾ [السجدة] ﴿أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ... (٥٤)﴾ [فصلت] والامتراء والمماراة: المحاجة فيما فيه تردد، وأصله من مريت الناقة إذا مسحت ضرعها للحلب».

فمؤدى كلمة الامتراء هو المحاجة فيما فيه ريب، فكأن الله سبحانه وتعالى يقول لنبيه الكريم أو لقارئ القرآن العظيم: فلا تكن من الذين يجادلون فى هذا

شاكين؛ فإنه ليس موضع شك من جهة، وليس موضع جدال؛ لأن الذين يجادلون فيه يجادلون فى قدرة الله تعالى ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ۝١٣﴾ [الرعد] وإذا كان النبى ﷺ منهيا عن المجادلة فى هذا الأمر لأنه لا مسوغ فيه للجدل، فماذا يكون من أمره إن حاجوه هم؟ فبين سبحانه ما يكون منه إن حاجوه بقوله تعالت كلماته:

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ المحاجة تبادل الحجة، سواء أكانت الحجة قوية أم كانت حجة داحضة عند ربهم، والفاء هنا فاء الإفصاح؛ إذ إنها تفصح عن شرط مقدر؛ والمعنى إذا كانت هذه حقيقة السيد المسيح عليه السلام، وهذه إرادة الله تعالى فى الخلق والتكوين، فكل ما يدعى له من الألوهية باطل، ولا يؤمن به أحد، فمن حاجك إلخ: والمعنى: فمن حاجك فى شأنه من حيث كونه إلها أو ابن إله أو غير ذلك من الترهات الباطلة، بعد أن علمت من شأنه ما علمت، وذلك بعلم الله الذى أعلمك إياه، ووحيه الذى أوحاه إليك، فلا تبادلهم حجة بحجة لأنهم لا يؤمنون بحقيقة ما يقولون، ولا يذعنون للحق الذى تقول، وإن كانوا يعلمونه، ولكن قل لهم: ﴿تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ والمعنى ندع من عندنا من ذرية ونساء، ومن عندكم من ذرية ونساء، ومن عندنا من رجال، ومن عندكم؛ أى يتلاقى جمعنا وجمعكم، ثم نتجه نحو الحقيقة طالبين لها، أو على الأقل يعلن كل واحد منا إيمانه بما عنده، ونبتهل إلى الله ضارعين إليه، متجهين بقلوبنا نحوه أن يجعل لعنته وطرده من رحمته على الكاذبين فى دعواهم المنحرفين فى اعتقادهم.

وهذا المعنى هو ظاهر الآية؛ إذ فيه الدعوة الاجتماعية من الفريقين ليكون الجمع فى مقابل الجمع فيعرف المحق من المبطل.

وهناك معنى آخر تشير إليه مرويات الصحاح من السنة، وهو أن يدعو النبى خاصته من أهل بيته، وهم نساء قرابته وذريته، ورجال أسرته؛ وقد روى البخارى وغيره أن النبى ﷺ ذهب إلى المباهلة ومعه الحسن والحسين وفاطمة وعلى[١].

والمعنى على الأول يشير إلى أن المباهلة بين أهل الحق مجتمعين، وأهل الباطل مجتمعين، ثم يتجهون جميعا إلى رب العالمين؛ لأن الأمر يهم الجميع، فإما أن يذعن أحد الفريقين للآخر، وإما أنه يطرد من رحمة الله تعالى. وعلى الثانى يشير إلى أن المباهلة بين النبى وأسرته، وكبراء الفريق الآخر وأسرهم، وإلى أن الذى يؤمن بما يقول لا يمتنع عن تقديم أحب الناس إليه فى المباهلة مادام مؤمنا بأن الحق فى جانبه.

وإن النبى تقدم إلى هذه المبارزة المعنوية الاعتقادية، ولكنهم أحجموا ولم يتكلموا ورضوا أن يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

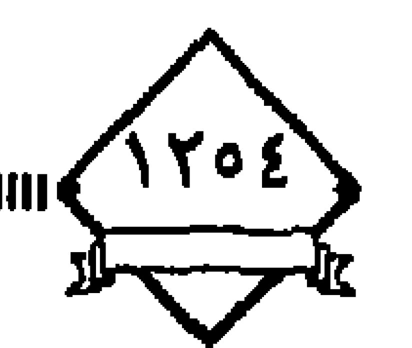
والابتهال قال فيه الزمخشرى: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾: ثم نتباهل بأن نقول بهلة الله على الكاذب منا ومنكم، والبهلة بالفتح والضم اللعنة، وبهله الله: لعنه وأبعده من رحمته، من قولك أبهله إذا أهمله. وأصل الابتهال هذا، ثم استعمل فى كل دعاء يجتهد فيه، وإن لم يكن التعانا.

وفى الآيات الكريمة إشارة إلى عدة معانٍ نفسية واجتماعية:

أولها: أن المجادل الممارى لا تزيده الحجة القوية اقتناعا، ولا تحمله على الإذعان، إنما يحمله على الإذعان التوجيه النفسى، بأن يدرس مقدار اقتناعه هو بما يقول، وفى الابتهال وسط لجاجة أولئك الذين يحرفون الكلم عن مواضعه دعوة لهم إلى أن يفتشوا قلوبهم ويعرفوا مقدار إيمانهم بما يقولون، ومقدار الحق فيما يعدلون؛ ولذلك خروا صاغرين، ولم يستطيعوا جدالا.

---

(١) رواه الترمذي: المناقب - مناقب علي بن أبي طالب (٣٦٥٨) وأحمد: مسند العشرة المبشرين بالجنة (١٥٢٢).



وثانيها: أن الدعوة بالتى هى أحسن توجب على الداعى ألا يفرط فى المجادلة، كما كان يقول الإمام مالك: بيّن الحق ولا تجادل فيه، فإن كل مجادلة توجب على الفريق الآخر أن يلتزم موقفه.

ثالثها: أنه يجب أن تعلم الذرية والنساء شئون الدين؛ ولذلك كانوا مشتركين فى تلك المنازلة بين الحق والباطل وهذه المعركة النفسية الفاصلة بين إيمان المؤمنين، وانحراف المنحرفين.

ورابعها: التعاون الفكرى والنفسى بين المؤمنين؛ فإن تلك المباهلة كانت بين أهل الإيمان متعاونين على دعوة الحق، وأهل الباطل مدعوين إلى التعاون عليه فيها إن كانوا مؤمنين به، فلم يحيروا جوابا.

ولقد أكد سبحانه وتعالى صدق ما أخبر به عن عيسى عليه السلام فقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ أى إن هذا الذى أخبرت هو القصص الثابت الذى لا مجال فيه لإنكار منكر، ولا لتشكيك متشكك، وقد أكد سبحانه صدق القصص فى تلك الجملة السامية بأربعة مؤكدات هى: إنَّ، فهى للتوكيد، واللام فى قوله تعالى: ﴿لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ وضمير الفصل، والقصر الذى تضمنه تعريف الطرفين؛ إذ المعنى فيه أن ما أخبرت به فى شأن عيسى عليه السلام هو وحده الخبر الحق، ولا حق فى سواه، بل ما عندهم ترهات وأباطيل.

وإن هذا الخبر يتضمن فى ذاته أن المسيح عيسى عليه السلام ليس إلها ولا ابن إله، وأنه عبد الله ورسوله الأمين، وأنه من أولى العزم من الرسل، وأن الألوهية الحق هى لله تعالى وحده؛ ولذا صرح بهذا عقب تأكيده القصص الحق، فقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾:

هذا نفىٌ باتٌّ قاطع للألوهية من غير الله تعالى، وإثبات الألوهية لله وحده، وقد أكد النفى بكلمة «من» فهى تفيد استغراق النفى استغراقا مستمرا ثابتا مؤكدا، وفى النفى والإثبات تأكيد لمعنى المستثنى أبلغ تأكيد، وإن هذا النفى فيه رد بالغ على النصارى الذين ادعوا ألوهية للمسيح عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ معناه أن الله سبحانه وتعالى المنفرد بالألوهية وحده هو العزيز الغالب الذى لا يقهر، الحكيم الذى يدبر كل شيء بكمال سلطانه وسيطرته على هذا الوجود الذى لا ينازعه السلطان فيه غيره كائنا من كان. وإن الجملة السامية فيها تأكيد لمعنى العزة والسلطان الكامل بالتعبير بإن، وباللام، وبضمير الفصل، وبتعريف الطرفين.

وفى هذا الكلام رد على أولئك الذين يزعمون أن المسيح إله، ويعتقدون مع ذلك أنه غُلب على أمره وصُلب ولم يستطع لنفسه حولا ولا طولا، ولا حيلة يخرج بها من ذلك المأزق، ولكن هكذا يعتقدون، وبه يؤمنون.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أى فإن أعرضوا ولم يبتهلوا لتكون لعنة الله على الكاذبين، وكلمة الحق هى الغالبة المسيطرة، فاعلم أنهم ليسوا طلاب حق وهداية ولكنهم دعاة باطل، وفى دعاوى الباطل يكون الفساد فى الأرض؛ لأنه لا فساد فى الأرض أكثر من فساد الاعتقاد، فإن فساد الاعتقاد، يدفع إلى فساد العمل.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ ليس هو جواب الشرط ولكنه ينبئ عن جواب الشرط المحذوف، إذ تقدير القول: فإن تولوا وأعرضوا فأنذرهم بسوء المغبة وسوء العقبى، فإن الله عليم بالمفسدين. وهذه الجملة السامية تتضمن فى ذاتها تهديدا شديدا، إذ إن الله تعالى إذا علم بالمفسد لا يسكت عنه، ولا يتركه يعيث فى الأرض فسادا، بل إنه يأخذه أخذ عزيز مقتدر، ويوم القيامة يأخذه بالنواصى والأقدام، وكذلك الشأن فى كل من يعرضون عن الحق إذا دعوا إليه.

اللهم مكن الحق من قلوبنا، واجعلنا ممن يؤمنون به، ويذعنون له، وأعز الإسلام، واجعل أهله يؤمنون به، ويفتدونه، إنك أنت العزيز الحكيم.

قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

ذكر سبحانه وتعالى فيما سبق خبر مريم البتول، وخبر ابنها عيسى الذى رفعه الله مكانا عليا، ثم ذكر سبحانه وتعالى الآيات الكبرى التى أجراها على يد عيسى عليه السلام لإثبات رسالته، وتوثيق دعوته، ثم آمن به الحواريون، وكفر به الأكثرون، مما يدل على أن المعجزة لا تحمل على الإيمان حملا، ولكنها تنير السبيل أمام طالبى الحق الذين لا يبغونها عوجا؛ ثم أشار سبحانه إلى انحراف الذين جاءوا بعد عيسى وادّعوا أنهم اتبعوه، وما اتبعوه فى شىء؛ فقد ادّعوا أنه إله أو ابن إله، وليس إلا عبد الله ورسوله، وقد اعتمدوا فى هواهم على أنه خلق من غير أب، فأبطل سبحانه قياسهم بقياس أدق وأقوى إنتاجا، وهو أن آدم خلق من غير أب وأم فكان أولى أن يعبد، إن كان قياسهم سليما، ولكنه غير سليم.

ثم أمر سبحانه وتعالى أن يخاطب نبيه محمد ﷺ نصارى عصره بما يكشف خبيئة نفوسهم، وهى أنهم لا يؤمنون بشىء إيمانا صادقا، ولكنهم يمارون، وما أمره سبحانه به هو أن يبتهل هو وهم، فيجعلوا لعنة الله على الكاذبين، فلم

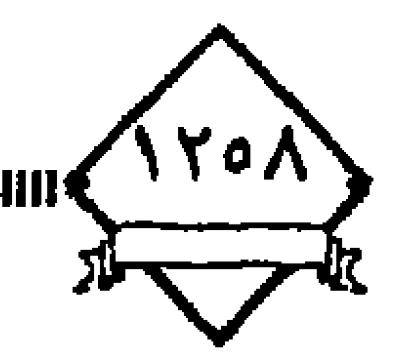
يدخلوا فى تلك المبارزة النفسية التى يبارز فيها الحقُّ اليقينُ الثابتُ الباطلَ المترددَ المتحيرَ.

وفى هذه الآيات ينتقل سبحانه وتعالى من الخصوص إلى العموم، فيخاطب أهل الكتاب من نصارى ويهود على لسان نبيه، يدعوهم جميعا إلى الحق الذى يتساوى عنده الجميع، فقال تعالى:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ النداء هنا لأهل الكتاب عامة، لا لطائفة خاصة منهم؛ فهو يشمل اليهود والنصارى جميعا، لا فرق بين طائفة منهم وطائفة، وكان النداء فى هذا عاما؛ لأن العيب عام فيهم، والدواء واحد؛ فلوحدة الداء ووحدة الدواء كان النداء عاما؛ ذلك أن عيبهم هو التعصب لما عندهم تعصبا أعماهم عن الحق عند غيرهم، فهم يظنون أنهم وحدهم أهل علم النبوة لا ينزل على غيرهم ولا يدينون به لسواهم، فهم يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وكل يتعصب لما عنده، فاليهود يقولون: ليست النصارى على شىء، والنصارى يقولون: ليست اليهود على شىء، وكلاهما يقولون: ليس غيرنا على شىء، والدواء واحد أيضا، وهو طلب الحق لذات الحق من غير إذعان لهوى، ولا إفراط فى العصبية، وحتى لا تؤدى إلى الانحراف.

وناداهم سبحانه: بـ «أهل الكتاب» مع أنهم حرفوا فيه الكلم عن مواضعه، وانحرفوا عن مبادئه، وفرقوا فى أحكامه، وتفرقوا فى فهمه؛ والسبب فى هذا النداء هو أولا توبيخهم على ما كان منهم؛ لأن علمهم بالكتاب كان يوجب عليهم الإذعان للحق بدل التفرق فيه، ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ... ﴿١٤﴾﴾ [الشورى] ثم هناك سبب آخر، وهو أن علمهم بالكتاب فى الجملة يجعل الاحتكام إلى ما بقى منه عندهم كافيا لإذعانهم إن كانت عندهم أثارة من إيمان بالحق وطلب له مع ماهم فيه من تعصب.

ولقد أمر الله نبيه بأن يدعوهم بقوله: ﴿كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أى كلمة هى مستوية بيننا وبينكم، أى فيها إنصاف لنا ولكم، ونلتقى فيها معكم، وتلتقون



عندها إن طلبتموها، وكلمة سواء تطلق بمعنى العدل والنصفة، وقد قال زهير بن أبى سلمى:

أرونى خطَّةً لا ضَيْمَ فيها ... يُسَوِّى بيننا فيها السَّواءُ

فالسواء هنا هو العدل، وأصل السِّوَى، والسُّوى الاسْتواء، وإذا فتحت السين منها صارت سواء، ولقد قال تعالى: ﴿... مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾﴾ [طه] أى مكانا مستويا.

والمؤدى أن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه أن يدعوهم إلى كلمة يستوى فيها النبى معهم، وكان ينبغى أن يستووا بالنسبة لها معه، وتلك الكلمة، أو تلك الحقيقة المقررة الثابتة فى كل الكتب السماوية التى لا يفترق فيها كتاب عن كتاب هى ما ذكره سبحانه وتعالى بقوله:

﴿أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ فهذه الكلمة التى يستوى فيها الإسلام مع الأديان التى سبقته هى التوحيد، والتوحيد بشمول معناه يشمل التوحيد فى العبودية، والتوحيد فى الربوبية، والتوحيد فى العبودية ألا يعبد إلا الله سبحانه وتعالى، وهذا ما بينه سبحانه وتعالى بقوله على لسان نبيه: ﴿أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾. فلا يصح أن يشرك مع الله فى الألوهية حجر ولا بشر، فلا يقال: فلان إله، ولا ابن إله ولا عنصر ألوهية قط فى حجر.

أما التوحيد فى الربوبية، فهو ما أشار إليه سبحانه بقوله تعالى: ﴿وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أى لا يتخذ أحد من البشر فى مقام الرب، بأن يكون له فضل فى التكوين أو الإنشاء أو التأثير فى الخلق بأى نوع من أنواع التأثير، فإن هذا كله من عمل الرب، والله سبحانه وتعالى هو رب العالمين وحده، ولا رب سواه، فلا مؤثر فى الكون ولا فى الأشخاص، ولا فى الأشياء سواه، فلا أثر لحجر ولا لبشر كائنا من كان هذا البشر.

وهناك معنى آخر للربوبية يدخل فى مضمونها، وهو أن يكون الشرع كله لله تعالى، فلا يتكلم عن الله أحد إلا نبى يوحى إليه، والجميع بعد ذلك أمام الشرع سواء، إلا أن يكون فهم متميز متفهم متعرف، ومن ادعى أنه يتكلم عن الله باسم الله من غير وحى يعتمد عليه، فقد زعمه ربا يؤخذ عنه؛ ولذلك عبر القرآن عن علماء النصارى واليهود الذين ادعوا أن قولهم دين يتبع، وتقاليد تؤثر، بأنهم قد اتخذوهم أربابا من دون الله، فقال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ... ﴿٣١﴾﴾ [التوبة] ذلك بأنهم جعلوا لهم الحق فى أن يشرعوا باسم الله ما لم يشرعه الله، وأن يخالفوا ما أمر الله سبحانه وتعالى، فهم جعلوهم فى مقام الرب جل جلاله، ولقد روى عندما نزل قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ قال عدى بن حاتم: ما كنا نعبدهم يارسول الله! فقال الرسول عليه السلام: «أليسوا كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذوا بقولهم؟» قال: بلى. قال النبى ﷺ: «هو ذاك»[(١)].

وعن بعض التابعين أنه قال: لا أبالى أطعتُ مخلوقا فى معصية الخالق أو صليتُ لغير القبلة!! فكانت التسوية كاملة بين الأخذ فى دين الله بغير ما أنزل الله، والخروج عن الإسلام الذى رمز إليه ذلك التابعى الجليل، وهو ألا يكون من أهل القبلة.

عرض النبى بأمر الله تعالى ذلك الأمر الذى يكون فيه نصَفَة له[(١)] ولهم، وكانت الدعوة إلى أخذ دين الله من ينبوعه الصافى فيهما فائدتان: إحداهما: ألا يتزيدوا على ما أمر الله تعالى وما نهى عنه؛ والثانية: أن أولئك المجادلين هم الذين يبثون فى نفوس أتباعهم التعصب الأعمى، محافظة على سلطانهم أن يزول؛ فكانوا فى زعامتهم بمنزلة زعماء قريش وأشباههم من أنهم خشوا على سلطانهم من اتباع النبى الكريم ﷺ.

---

(١) رواه الترمذي: تفسير القرآن - ومن سورة التوبة (٣٠٢٠).

(١) النصفة: الإنصاف، وهي المعاملة بالعدل.

وإذا كان قد دعاهم إلى هذا الإنصاف وإلى ترك التعصب جانبا، وعدم الخضوع لأسبابه، فإن حال الذين يخاطبهم إحدى حالين: إما أن يخلصوا فى طلب الحق، ويجيبوا داعيه، وتلك خير الخصلتين، وإما أن لايجيبوا داعيه وتلك هى السوءى، فإن كانت الأولى فتلك هداية الله، وإن كانت الثانية فإن الله تعالى قد كتب عليهم الشقوة، ولا سبيل لأن يدخل النور قلوبهم، فإن من طلب منه الإنصاف فأعرض عنه فلا سبيل إلى هدايته، والجدل معه لا يجدى؛ ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿إِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾:

أى فإن أعرضوا ونأوا بجانبهم عن إجابة داعى الإنصاف، والدعوة بالتى هى أحسن فلا تجادلوهم ولا تحاجوهم، فإن الجدل مع من لم يجب داعى العدالة لا يزيده إلا لجاجة وعنادا؛ وإن الحقائق تتبعثر على ألسنة المتجادلين، ويتبدد رونقها، ويذهب بهاؤها، وتفقد النفس عند الجدل الإيمان بالحقائق والإذعان لها، بل أمرهم الله تعالى بقوله: ﴿فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أى يقول النبى ﷺ ومن معه من المؤمنين لأولئك الذين مردوا على الجدال وبعثرة الحقائق فى حومة الجدل: اشهدوا بأنا مسلمون، مذعنون لطلب الحق فلا تحاولوا أن تغيرونا عما اعتقدنا وقد أنصفناكم بالدعوة إلى كلمة الحق والإنصاف، فلم تجيبوا، والآن ننصفكم مرة أخرى بأن نشهدكم بأننا مخلصون فى طلب الحق مذعنون له؛ ومن جانبنا؛ فإن أذعنتم مثلنا فنعمّا هى، وإن لم تذعنوا فلنا ديننُا، ولكم دينكم، والله يحكم بيننا وهو خير الحاكمين. وإن إعلان الإذعان للحق من جانب المؤمنين فيه دعوة للحق بإعلان المثل الواضح البين السامى، وهو يؤثر فى الدعوة إلى الحق أكثر من الجدل، إذ يكون فيه ذكرى لمن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. وإن الجدل يثير غبارا يجعل الوصول إلى الحق عسيرا وسط عجاجة المتجادلين.

وإن هذه الآية الكريمة صورة سامية من الدعوة إلى الحق. ولذا كان يتخذها النبى ﷺ منهاجه فى دعوته، فقد كانت فى الصيغة التى اختارها فى دعوة الملوك والحكام الكبراء إلى الإسلام، وهذا نص كتابه عليه الصلاة والسلام إلى هِرَقْلُ ملك الروم:

«من محمد عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم؛ سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين[١] ، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباب من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون»[٢].

ولقد كان النصارى يحاجون بولادة عيسى، ويتخذون منها دليل ألوهيته، واليهود يتحاجون ويجادلون بما عندهم من توراة ، أو بالأحرى بما بقى عندهم منها؛ ولما كان كل من الفريقين يدعى أن إبراهيم أبا الأنبياء كان على مثل دينهم، وذلك ليبينوا أن ديانتهم هى ديانة السابقين، كما هى ديانة المتأخرين؛ بين الله سبحانه أن مثل هذا الاحتجاج منهم باطل فى معناه، كما هو باطل فى شكله ومبناه؛ فقال سبحانه:

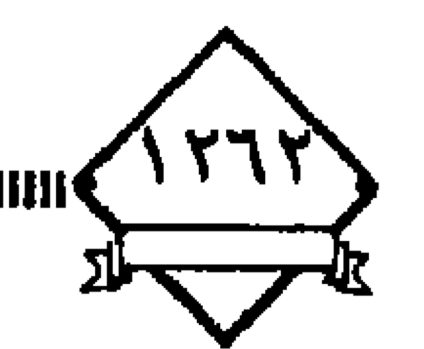
﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أى أنه لا يسوغ لكم المحاجة فى شأن إبراهيم من حيث إنه كان يهودياً أو كان نصرانيا ومن حيث إنكم أتبع الناس له أو أبعد الناس عنه، ومن حيث ما جاء به وحقيقة دعوته؛ فإن التوراة والإنجيل ما جاءا إلا من بعده، فكيف يكون يهوديا يدين بالتوراة قبل أن تجيء التوراة، وكيف يكون نصرانيا يدين بالإنجيل قبل أن ينزل الإنجيل؟ إن هذه محاجة واضحة البطلان.

والمحاجة معناها مبادلة الحجة، فما هذه المحاجة؟ أكانت مع النبى ﷺ أم كانت فيما بينهم؟ ظواهر النصوص تفيد بمقتضى السياق أنها كانت مع النبى ﷺ، فهم يقيمون الحجة على سلامة دينهم بأنه دين إبراهيم الذى كان موضع إجلال الجميع، والذى بنى البيت الحرام الذى هو أول بيت وضع للناس، والذى كان موضع تقديس العرب أجمعين.

---

(١) جاء فى الهامش: الأريسيون هم: العمال والفلاحون، أو الدهماء بشكل عام.

(٢) متفق عليه؛ رواه البخاري: بدء الوحي(٦)، ومسلم: الجهاد والسير - كتاب النبي ﷺ إلى هرقل (٣٣٢٢)، عن أبي سفيان (صخر) بن حرب رضي الله عنه.



ولكن مع هذا الظاهر روى ابن اسحاق عن ابن عباس أنه قال: اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهوديا، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانيا، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ الآية[1].

وسواء أكانت المحاجة مع النبى ﷺ أم كانت فيما بينهم فإنها غير معقولة فى ذاتها؛ ولذا وبخهم سبحانه وتعالى عليها بقوله تعالت كلماته:

﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ هذا النص الكريم هو نتيجة لهذا الحكم الذى يتحاجون فيه، وهو كون إبراهيم يهوديا أو نصرانيا؛ إذ أن ذلك هو حكم من لا يعقل؛ ولذلك كانت الفاء التى تفيد السببية، وهو كون ما قبلها سببا لما بعدها، فتلك الحال التى هم عليها من الغرابة هى السبب فى ذلك السؤال عن أصل عقلهم، وإدراكهم لمعناها.

والاستفهام إنكارى؛ فهو نفى لكونهم يعقلون فى هذه الأمور التى يتجادلون حولها، وذلك يؤدى إلى السؤال عن أصل وجود العقل عندهم، وإن هذا النفى هو فى ذاته توبيخ، وتنبيه إلى ما أدى إليه التعصب الأعمى الذى جعلهم لا يدركون الأمور على وجهها، وينسيهم البدهيات التى لا تختلف فيها المدارك والعقول، حتى يكون أصل العقل عندهم موضع إنكار.

ولقد زكّى سبحانه وتعالى ذلك التوبيخ، وهذا النفى ببيان مظهر آخر من مظاهر مخالفتهم لما يقتضيه العقل فى أمر آخر، يتصل بهذه المسألة، وهو أنهم يجادلون ويتقدمون بالحجج فى أمر ليس عندهم أصل العلم به؛ ولذا قال تعالى:
﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾:

أى أنتم معشر أهل الكتاب حاججتُم وبادلتم الحجة، سواء أكانت داحضة أم دامغة فى أمر عندكم أسباب العلم به، سواء أكنتم تجادلون بمقتضى هذا العلم أم

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل - أسباب النزول للسيوطي: آل عمران (٦٥).

تخالفون مقتضاه، وتلوون منطقه، وتبعدون به عن الحجج، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم؟ وبيان ذلك أن اليهود والنصارى عندما كانوا يتجادلون مع النبى ﷺ، وفيما بينهم كانوا يتجادلون فى أمرٍ أسباب العلم به قائمة حاضرة مهيأة وإن كانوا ينحرفون بها عن غاياتها، ويلوونها عن مقاصدها ومراميها تبعا لأهوائهم وشهواتهم، فكانت محاجة فى أمر لهم به علم، وإن لم يسيروا على مقتضى أحكام العلم، أما جدلهم فى كون إبراهيم كان يهوديا أو نصرانيا، أو فى كون النبى ﷺ المبعوث فى المستقبل يكون عربيا أو عبريا فجدل ومحاجة فى أمر لا علم لهم به، وإن العاقل ينأى به عقله عن أن يجادل فى أمر ليس عنده شىء من أسباب العلم به، ولكن هكذا يتردى أهل العقول عندما تنحرف نفوسهم إلى التعصب، فيتحكم الهوى فى العقل.

وهنا مباحث لفظية:

أولها: أن الهاء المكررة فى قوله تعالى: ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ﴾ هى هاء التنبيه، وتكرارها فى موضع واحد للدلالة على غرابة ما هم عليه ومجافاته لكل تفكير ولكل عقل، وكيف دلاهم التعصب فى هذا الانحراف الفكرى.

وثانيها: أن «هؤلاء» إشارة إلى النصارى واليهود الذين قالوا فى إبراهيم ما قالوا، وقد أنزلت التوراة والإنجيل من بعده، فهى تتضمن الأحوال الغريبة التى كانت منهم، وأنها أدت إلى شذوذ عقلى آخر.

ثالثها: أن الزمخشرى ذكر أن بعض العلماء قال هنا إن «هؤلاء» بمعنى «الذين» وإن هذا يفيد أن الذى أدى إلى ترديهم العقلى هو أنهم يتكلمون فيما يعلمون وفيما لا يعلمون.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ ختم الله سبحانه وتعالى ببيان علمه تعالى المؤكد، فقرر العلم المطلق له سبحانه، ونفى عنهم العلم فى هذا المقام، فالله سبحانه وتعالى هو الذى يعلم حال إبراهيم عليه السلام، ويعلم الحق فيما يتحاجون به بعلم وبغير علم، ويعلم مَن الذى يكون أهلا لرسالته أيكون من

العرب أم يكون من العجم؟ ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ... ﴿١٢٤﴾ ﴾ [الأنعام] وهو الذى يعلم بخفايا نفوسهم، والحقد الدفين فيها، والحسد للناس على ما آتاهم الله من فضله. وقد قرر سبحانه أنهم لا يعلمون، فقال: ﴿وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ فهم لا يعلمون حال إبراهيم عليه السلام ولا من هو أهل للرسالة؛ وليس من شأنهم أن يعلموا؛ لأن أحقادهم تحول بينهم وبين أن يدركوا الذى عليه من يخالفونهم، فإنه لا شيء كالحقد والحسد يحول بين المرء والإدراك السليم والعلم الصحيح.

اللهم وفقنا للحق، وهيئ لنا أسباب العلم به، والإذعان له؛ فإن الهداية منك وإليك، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له.

مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾

ذكر الله سبحانه وتعالى فى الآية السابقة ما يشير إلى أن كلتا الطائفتين من اليهود والنصارى كانت تدّعى أن دينها هو دين الله الخالص، وأنه دين النبيين جميعا، وأنه دين أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وأنهم ما غيروا وما بدّلوا؛ وكذلك كان يدّعى المشركون؛ لأنهم من سلالة إبراهيم عليه السلام، وحسبوا هذا

يسوغ لهم ذلك الإدعاء؛ وقد بين الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية أن إبراهيم عليه السلام برىء من هذه النِّحَل؛ لأنه نبى الوحدانية، هادم الأوثان، وحاطمها، والذى تعرض للأذى بالنار لجرأته الكبرى عليها وعلى عُبَّادها، وما نجاه إلا الله، كما قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩)﴾ [الأنبياء] ولقد قال سبحانه فى تقرير هذه البراءة من اليهودية والنصرانية والشرك:

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ وفى هذا النص القرآنى الكريم نفى لوصف اليهودية والنصرانية عن خليل الله تعالى، ومرمى النص هو براءته منهم، وفى نفى الوصف على ذلك النحو توكيد لهذه البراءة، وتثبيت لهذه النزاهة؛ إذ إن المؤدى أنه لو كانت اليهودية أو النصرانية على ما هما عليه تنتمى إلى إبراهيم عليه السلام لكان متصفا بهما، وهو قد نزهه ربه عن أن يتصف بما عليه اليهود من ضلال؛ فنفى وصف اليهودية عنه عليه السلام تضمن براءته منهم، وفيه التعريض بما فيهما من ضلال لا يليق أن يلصق بنبى من أنبياء الله، والتنويه بشأن إبراهيم من أن يكون فى مثل حمأة اليهود والنصارى الذين عاصروا النبى ﷺ.

وقد ذكر سبحانه على سبيل الاستدراك وصفه الحقيقى، ودينه الحق فقال تعالى: ﴿وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

فقد ذكر سبحانه فى وصفه الحقيقى ثلاثة أوصاف تتنافى كلها تمام التنافى مع ما عند اليهود والنصارى، وهذه الأوصاف هى أنه: حنيف، ومسلم، وما كان من المشركين.

والوصف الأول وهو حنيف معناه: الميل إلى الحق وطلبه، والاتجاه إليه، وتحريه والاستقامة فى الوصول إليه؛ ولقد قال الأصفهانى فى مفرداته: «الحَنَفُ ميل عن الضلال إلى الاستقامة، والجنف ميل عن الاستقامة إلى الضلال. والحنيف هو المائل إلى ذلك، قال عز وجل: ﴿... قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ... (١٢٠)﴾ [النحل] وقال: ﴿حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ وجمعه حنفاء؛ قال عز وجل:

﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ ... ﴿٣١﴾﴾ [الحج]. وتحنف فلان أى تحرى طريق الاستقامة».

ووصفُه عليه السلام بأنه حنيف يطلب الحق مستقيما فى طلبه فيه بيان منافاة أخلاق اليهود والنصارى لأخلاقه وهديه، فهم لا يطلبون الحق لذات الحق، ولكن يطلبون هوى أنفسهم، فإن يكن الحق لهم يأتوا إليه مذعنين، وإن يكن الحق عليهم أعرضوا عنه وذلك لمرض قلوبهم.

والوصف الثانى من أوصاف إبراهيم خليل الله أنه مسلم، والإسلام هو الإخلاص لذات الله، والمحبة والانصراف إليه سبحانه وتعالى، حتى لا يعمر القلب بغير نوره، وهذا أيضا وصف منافٍ لما كان عليه اليهود والنَّصارى، فإلههم هواهم، ومحبتهم لأنفسهم لا لله، وإنما هى أعراض الدنيا أركست نفوسهم، وأغلقت دون نور الله قلوبهم.

والوصف الثالث: وصف سلبى، وهو أنه كان غير مشرك، وقد نفى الله سبحانه وتعالى عن خليله وصف الشرك بهذه الصيغة الجامعة فقال: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ولم يقل «وما كان مشركا» لأنها تتضمن نفى الإشراك كله وشوائبه عن إبراهيم عليه السلام؛ فإن المشركين أصناف وألوان؛ فمنهم من يعبد الأوثان، ومنهم من يجعل لله ابنا يعبد، ومنهم من يجعل الله ثالث ثلاثة، ومنهم من يتخذون أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله، ومنهم من يتخذون وساطة بين العبد والرب، وهكذا، فما كان إبراهيم من أى صنف من هذه الأصناف. وفى ذكر هذه الصيغة السامية فى نفى الشرك عن إبراهيم تعريض بين حالهم وما هم عليه من الشرك الظاهر، فكيف يدعون الانتساب لإبراهيم عليه السلام، وهم على ماهم من الشرك، إنما الذين يعدون أولى الناس هم من قال الله فيهم:

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى إن أشد الناس ولاية بإبراهيم وأجدرهم بالاتصال به، لَلَّذين اتبعوه، وهذا النبى والذين آمنوا بهذا النبى، فهم أصناف ثلاثة قد أكد سبحانه اتصالهم بإبراهيم بثلاثة

تأكيدات؛ أولها: «إن» وثانيها: أفعل التفضيل، وثالثها: اللام فى قوله تعالى: ﴿ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾.

والذين اتبعوه موصول عام يشمل الذين اتبعوا هدايته فى حياته، وأجابوا دعوته، ولم يخالفوه، والذين اتبعوه من بعد وفاته، وإنهم لكثيرون، وكان يمكن أن يكون من هؤلاء اليهودُ والنصارى، لو اتبعوا هديه فطلبوا الحق وأخلصوا لله فى طلبه، وتجنبوا الشرك بكل ضروبه وبكل أشكاله، وفى هذا توبيخ لهم على أنهم لم يتبعوه، وادعوا الانتماء إليه. وقد ذكر النبى ﷺ بالنص عليه بالذات على أنه أولى الناس بإبراهيم عليه السلام، ولم يذكره فى ضمن الذين اتبعوه؛ لأن النبى ﷺ تلقى الهداية من السماء كما تلقاها إبراهيم، ولأن محمدا ﷺ خاتم النبيين، ولأنه آخر دعامة فى بناء صرح الرسالة الإلهية إلى أهل الأرض. وفى ذكر النبى ﷺ تمهيد لبيان أولوية الذين آمنوا به ﷺ وبسيدنا إبراهيم من اليهود والنصارى؛ لأنهم حنفاء طلبوا الحق و وتحرَّوْهُ وآمنوا به واهتدوا ، وأخلصوا دينهم لله تعالى، وصار الله ورسوله أحب إليهم من أنفسهم. والذين آمنوا فى الآية هم من آمنوا بمحمد ﷺ؛ ولقد قال النبى ﷺ: «لكل نبى ولاة من النبيين، وإن وليى منهم أبى وخليل ربى إبراهيم»(١).

وولاية إبراهيم للنبى ومن اتبعهما بإحسان إلى يوم الدين أساسها الإخلاص لله تعالى وتوحيده، فهى من ولاية الله؛ ولذا قال سبحانه:

﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى جل جلاله، وعظمت قدرته، وتعالت حكمته، وتسامت عظمته، هو ولى المؤمنين وناصرهم، وهم أهل محبته ورضوانه؛ وذلك لأنهم لا يطلبون إلا رضاه، ولا يبتغون إلا محبته ورضوانه؛ فهم بإخلاصهم قد نالوا ولاء الله ومحبته؛ والله سبحانه وتعالى لا يوالى إلا من يؤمن للحق ويذعن له، ولا يطلب سواه.

---

(١) رواه أحمد: مسند المكثرين - مسند عبد الله بن مسعود (٣٦٠٩)، والترمذي: تفسير القرآن - ومن سورة آل عمران (٢٩٢١).

وفى هذه الجملة السامية إشارة إلى عدة معان عالية:

أولها: أن اتصال النبى ﷺ والذين اتبعوه، والذين اتبعوا إبراهيم بخليل الله؛ لأنهم اتصلوا بالله تعالى، والمؤمنون بعضهم لبعض ولى ونصير؛ لأنهم جميعا أولياء الله. فالمؤمنون برسالة إبراهيم والمؤمنون برسالة محمد كلهم أولياء، لأنهم جميعا أولياء الله تعالى، وفى ذلك يبين سبحانه لليهود وغيرهم الطريق الحق الذى يجعلهم أولى بإبراهيم كالنبى ومن اتبعه.

ثانيها: الإشارة إلى أن ولاية الله هى الغاية الكبرى التى يجب أن يطلبها كل مؤمن، وطريقها الإحسان فى كل شىء، وأساس الإحسان الإخلاص؛ ولذا يقول النبى ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1].

ثالثها: الإشارة إلى منزلة أهل الإيمان عند الله والوعد بنصرتهم مهما يتكاثف عددهم: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج].

﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ إن اليهود والنصارى كانوا يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله، كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا ...﴿١٠٩﴾ ﴾ [البقرة] فأولئك الكتابيون كانوا يشعرون أنهم فوق مستوى سائر العرب، فلما جاء النبى ﷺ بهديه فيهم ارتفع مستوى العرب فلم يذعنوا للحق الذى كان عليهم أن يؤمنوا له، بل تمردوا عليه، ولعظم المنزلة التى يعلمونها فيما جاء به محمد ﷺ كانوا يتمنون أن يضل المؤمنون، وأن يتركوا الحق؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ أى تمنت طائفة من أهل الكتاب ضلالكم، فلو هنا مصدرية تدل على التمنى، أى ودت هذه الطائفة ضلالكم ولم يكن ذلك منهم أمنية يتمنونها فقط، بل كانوا يقرنون القول بالعمل، فكانوا يلقون بالظنون والشكوك والأوهام حول الدعوة المحمدية ليرتاب الذين آمنوا، وكان منهم منافقون ينبثون بين المسلمين باسم أنهم مسلمون، ويلقون بالريب والتشكيك فى النبى ﷺ وما جاء به كما

(١) متفق عليه، وقد سبق تخريجه من رواية عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

يفعل اليوم أخلافهم من بعدهم؛ ولقد كان منهم من يجرؤ على الدعوة إلى اليهودية، حتى إنه ليروى أن يهود المدينة دعوا حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر إلى اليهودية، ولكن ضل سعيهم، وباءوا بالخسران المبين.

وإن الذى يعلم الحق، ويحاول أن يضلل غيره يزداد ضلالا ويعمى عن طريق الهداية، حتى ينتهى الأمر به إلى أن يجهل الذى كان يعلمه، وكذلك كان هؤلاء؛ ولذا قال سبحانه:

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أى أنهم بسبب غوايتهم وعمايتهم واستيلاء الهوى على قلوبهم أخذوا يثيرون الشك على أهل اليقين، فما أثَّر الشك فى أهل الحق، ولكن تأثرت نفوسهم هم بهذا الشك الذى أثاروه ليضلوا غيرهم، فضلوا، فهم حاولوا إضلال المؤمنين، فأكد الله سبحانه أنهم ما أضلوا إلا أنفسهم، وكان ضلالهم لأنفسهم من ناحيتين:

إحداهما ما ذكرناها من أن إيرادهم للشك فى الأمر الذى كانوا يعلمون الحق فيه قد أوجد فيهم هم أنفسهم حيرة بعد أن كانوا يعلمون، ومثل هذا مثل الكذوب الذى يكذب ويكرر كذبته حتى يعتقد صدقها.

الناحية الثانية: أنهم كلما لجوا فى الدعوة إلى الباطل الذى استمسكوا به بعدوا عن الإذعان للحق، فبمقدار ما كانوا يثيرون حول الحق من أكاذيب كانوا يبتعدون من الإيمان والإذعان، فيزدادون ضلالا فوق ضلالهم؛ وتلك حال نفسية يقيمون فيها ولايشعرون بها.

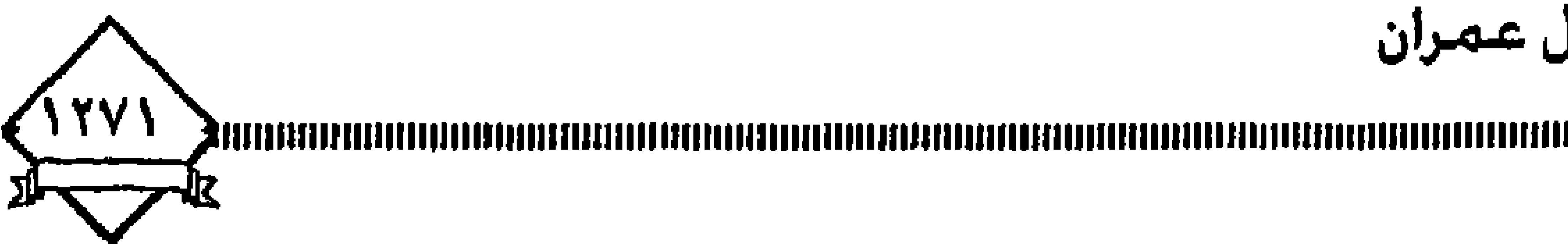
﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ وجه الله سبحانه وتعالى بهذه الآية النداء إلى أهل الكتاب يدعوهم إلى الإيمان مبينا لهم فى صيغة استفهام إنكارى توبيخى أن دواعى الإيمان قائمة، ودواعى الكفر غير ثابتة، ولذا يستفهم عنها، إنكارا وتوبيخا، وابتدأهم بهذا النداء الكريم، إذ قال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ وفى هذا النداء إشارة إلى أن ما أُعْطَوْه كان يقتضى أن يسارعوا إلى

الإيمان لا أن يكفروا، ثم وجه إليهم ذلك الاستفهام الإنكارى: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أى لقد كفرتم بآيات الله وبيناته الدالة على صدق الرسالة المحمدية وعندكم علم بها، وأنتم تعلمون صدقها، فالآيات هنا هى آيات نبوة محمد ﷺ، وهى القرآن الكريم، وما اشتمل عليه، والاستفهام لإنكار هذا الواقع الذى وقع منهم وهو الكفر مع قيام دلائله. ولقد أكد سبحانه وتعالى الاستنكار بقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أى وأنتم تعلمون صدق الرسول علما يقينيا كعلم المشاهدة والعيان، بما أخبر به فى كتابكم، أو: وأنتم تشهدون كل يوم الدلائل الصادقة التى تثبت الرسالة المحمدية.، ولكن اليهود والنصارى الذين عاصروا النبى ﷺ ما كانوا يكتفون بالكفر، بل كانوا يحاولون أن يلبسوا الحق بالباطل، ليفسدوا الإيمان على أهله؛ ولذا قال سبحانه:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

صدَّر النداء هنا بـ «أهل الكتاب» زيادة فى التوبيخ، وكل توبيخ لهم يُعد قليلا مهما يتكاثر وتترادف عباراته، والاستفهام هنا إنكارى لإنكار ما وقع منهم؛ ذلك بأنهم لبسوا وخلطوا الحق بالباطل، وكتموا الحق الذى يشهد لمحمد ﷺ بالصدق وهم يعلمون به، فكان الاستفهام للتوبيخ على هذا الذى وقع منهم؛ **فقد وقع منهم أمران، وثبت فيهم أمر ثالث:**

أما الأمر الأول: فهو خلط الحق بالباطل، بأن حاولوا أن يزيفوا الحق، فألبسوه ثوب الباطل، وأظهروه بمظهره إمعانا منهم فى التضليل. وقد فسر الكثيرون كلمة «تلبسون» بمعنى تخلطون، وهى فى المؤدى كذلك، ولكن لابد أن يلاحظ معنى الستر واللباس فى الكلمة، ذلك بأنهم جاءوا إلى الحق المبين فألبسوه ثوب الباطل لِيُسْتَبْهَم؛ ولقد قال فى هذا المعنى الأصفهانى: أصل اللبس ستر الشىء، ويقال ذلك فى المعانى، يقال لبست عليه أمره، قال: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام]، وقال: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ... ﴿٧١﴾﴾ [آل عمران].



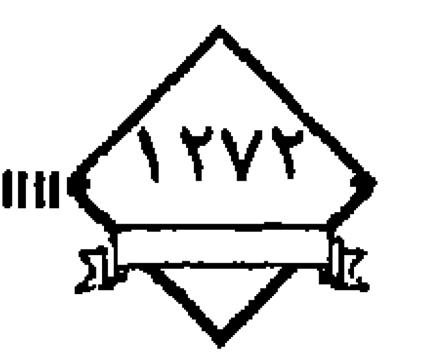
الأمر الثانى: كتمان الحق الذى عندهم فهم يسترون الحق الذى يقدمه النبى ﷺ بلباس الباطل الذى يخترعونه، ويكتمون الذى عندهم، ويشهد بصدق النبى ﷺ، وهذا أقصى ما يمكن أن يصل إليه الكفر بالحق، يكون عند الكافر دليل الحق، ومع ذلك ينكر الدليل الذى يقدمه صاحب الحق، ويحاول أن يزيفه بالباطل. وكل ذلك وهم يعلمون الحق فى ذاته، ولكنهم أضلهم الله على علم.

اللهم اكتبنا فيمن هديتهم، وامنحنا التوفيق؛ وأنقذنا من الضلال، ووفقنا لإدراك الحق، والإذعان له، والإيمان به، إنك سميع الدعاء.

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٧٢ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٧٣ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾

بيّن الله سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة أن أهل الكتاب يودون أن يضل المؤمنون، ويعملون على إضلالهم، وكلما أمعنوا فى هذا الطريق ازدادوا ضلالا، وما ازداد المؤمنون إلا إيمانا، وإن وجدوا فى ضعاف الإيمان ما يشبع نهمتهم وقتيا فإنهم سرعان ما يقوى إيمانهم بالحق، ويرتد أولئك المضلون فى طغيانهم يعمهون.

وفى هذه الآيات يبين سبحانه طريق طائفة منهم فى إضلال المؤمنين، وإثارة الشك فى قلوب ضعاف المؤمنين، وهى أن يظهروا الإيمان والإذعان والاطمئنان



إلى الحقائق الإسلامية، ليظن فيهم الظن الحسن من لم يعرف مكرهم وكيدهم، حتى إذا اطمأن الناس إليهم أعلنوا كفرهم، بعد مظهر الإيمان ليوهموا المؤمنين أنهم كانوا مخلصين فى إيمانهم طالبين الحق بهذا الإيمان، فلما تبين لهم البطلان خرجوا، فقد يخرج بهذا الخروج ضعاف الإيمان، ويلقون بذلك بين المسلمين شكا عمليا. وقد حكى الله سبحانه وتعالى عمل هذه الطائفة الماكرة الخبيثة فقال عز من قائل:

﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾ أخرج ابن جرير الطبرى عن قتادة التابعى أنه قال: «قال بعض أهل الكتاب لبعض: أعطوهم الرضا بدينهم أول النهار، واكفروا آخره، فإنه أجدر أن يصدقوكم، ويعلموا أنكم قد رأيتم فيه ما تكرهونه، وهو أجدر أن يرجعوا عن دينهم». وأخرج ابن جرير أيضا عن السُّدى أنه قال: «قالوا لبعضهم: ادخلوا فى دين محمد أول النهار، وقولوا: نشهد أن محمدا صادق، فإذا كان آخر النهار فاكفروا وقولوا: إنا رجعنا إلى علمائنا وأحبارنا، فسألناهم فحدثونا أن محمدا كاذب، وأنتم لستم على شيء، وقد رجعنا إلى ديننا، فهو أعجب إلينا من دينكم لعلهم يشكُّون، فيقولون هؤلاء كانوا معنا أول النهار فما بالهم؛ فأخبر الله سبحانه وتعالى رسوله بذلك وروى أنهم نفذوا قولهم عملا» والروايات فى هذا كثيرة، وكلها متلاقية فى المعنى غير متنافرة.

وخلاصتها: أن أولئك المضللين الذين أكل الحسد قلوبهم دعا بعضهم أن يظهروا الإسلام ليبدوا طلاب حقيقة، فإن رجعوا استطاعوا أن يجتذبوا معهم بعض ضعفاء الإيمان.

والمراد بوجه النهار ما يقابل آخره، وهو أول النهار، وعبر عنه بالوجه؛ لأن أول النهار هو وقت إقباله، والوجه هو مظهر الإقبال، والوجه أيضا كناية عن الظهور، وأول النهار هو وقت الظهور ووقت الوضوح، بعكس آخره.

وهل معنى الاتفاق الذى اتفقوا عليه هو أن يبدءوا فى الضحى فيسلموا ثم يكفروا فى المساء؟ ظاهر اللفظ ذلك، ولكن يبدو للمتأمل البصير أنهم يريدون أن يسلموا حينا من الزمان حتى تتم الثقة بهم والاطمئنان إليهم، ثم يكفروا من بعد ذلك، على ألا يستغرق إظهارهم الإسلام إلا أمدا يستطيعون فيه جلب الثقة إليهم؛ ويكون حينئذ التعبير كله من قبيل الاستعارة التمثيلية، سيقت لتصور حالهم التى اتفقوا عليها، وهى أنهم يظهرون الإيمان ثم يكفرون بعد أمد قصير. فالاستعارة لتصوير سرعة الرجوع وإظهار الكفر، وتأكد التعاقب بين إظهار الكفر وإظهار الإسلام، كما يتعاقب ظهور آخره بعد أوله. وقد حكى الله سبحانه وتعالى عنهم مقصدهم ومكرهم السيئ بقوله تعالت كلماته:

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فهذا التعبير يفيد بيان مقصدهم وهو رجاء أن يرجع بعض المؤمنين إلى الكفر بعد الإيمان، ولكنهم عبروا عن البعض باسم الكل، فإنه لا يمكن أن يرجعوا جميعا، بل الذى يرجى رجوعه من المسلمين هو الضعيف غير القوى فى دينه، غير المطمئن فى يقينه، ولكن كفر هذا الفريق بعد إيمان يحدث اضطرابا فى جماعة المسلمين، فيكون التظنن فيهم، وحيث جرى الشك فى الجماعة كان وراءه التفرق وفقد الثقة، وكان وراءهما الفشل الذريع، وإنهم من بعد ذلك يطمعون أن تعود الجزيرة العربية إلى الشرك بعد هذا الإيمان الذى هددهم فى كيانهم؛ وكذلك سولت لهم نفوسهم، فإن الذى يركب رأسَه الشيطانُ توسوس له نفسه بالشر، ويتسع أفق تصوره حتى يتمنى الأمانى البعيدة القاصية كأنها قريبة دانية.

وإن تلك الطريقة التى سلكوها من أقوى ما تفتق عنه التدبير الإبليسى؛ فإن إظهار الكفر بعد إظهار الإيمان مع التذرع بتلبيسات مضللة من شأنه أن يدخل الشك فى ضعفاء الإيمان، وقد يكون معه الجهر بما يثير الريب حتى فى أقوى الحقائق صدقا وأجدرها باليقين؛ ولذلك كانت عقوبة الردة التى ثبتت بقوله ﷺ:

«من بدّل دينه فاقتلوه»[١]. هى القتل؛ وذلك لقطع السبيل على الذين يدخلون فى الإسلام ظاهرا، وهم يريدون إثارة الشك حول حقائقه، وليس فى ذلك منافاة للحرية الدينية التى قررها الإسلام فى قوله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ... ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة] ولقد كان أولئك الذين أخذوا بذلك الطريق الخبيث لإفساد العقائد يظهرون فى عصور الإسلام الوقت بعد الآخر، وهم الزنادقة، فهم كانوا فى باطنهم كفارا يستترون بستار الإسلام ليفسدوا الأمر على أهل الإسلام، ويشككوا الناس فى عقائدهم.

وإن الفقهاء كانوا يحذرون الناس من سمومهم التى ينفثونها، وقرر جمهورهم أن كل مرتد يستتاب إلا من عرف بالزندقة، فإنه يتخذ التوبة ستارا ليستطيع بها الكيد للإسلام وأهله، فيرد عليه كيده فى نحره، وإن ظهر منه الكفر الذى يحاول ستره يؤخذ بالنواصى والأقدام.

وإن أهل الكتاب ليبالغون فى التدبير للاحتياط من أن يذهب منهم إلى المسلمين من يؤمنون بالإسلام، فهم يحاولون من جهة بث الشَّك فى الإسلام بين أهله، ومن جهة أخرى يعملون على الاحتياط من أن يدخل أحد منهم فى الإسلام، ولذلك يثيرون العصبية الدينية فيما بينهم، ويتداعون ألا يذعن أحد منهم لغير طائفته؛ ولذلك يقولون: ﴿وَلا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾:

أى لا تذعنوا مصدقين مقرين بالحق إلا لمن تبع دينكم، أى لا تنطقوا بالحق الذى تعلمونه مذعنين له إلا لمن تبع دينكم؛ وذلك لأنهم يعرفون محمدا كما يعرفون أبناءهم، وبين أيديهم الأدلة الصادقة الناطقة بصحة دعوته؛ فهم يعرفون ذلك ويتذاكرونه فيما بينهم، ولكنهم يتناهون عن أن يقولوه لغيرهم.

---

(١) رواه البخاري: الجهاد والسير - لا يعذب بعذاب الله (٢٧٩٤)، والترمذي: الحدود - ما جاء في المرتد (١٣٧٨)، والنسائي: تحريم الدم - الحكم في المرتد (٣٩٩١)، وأبو داود: الحدود - سنن من ارتد (٣٧٨٧)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقوله تعالى: ﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ فيها قراءتان، إحداهما: بهمزة واحدة، والأخرى بهمزتين إحداهما سهلة، والثانية قراءة ابن كثير[١]، وإحدى الهمزتين على هذه القراءة تكون للاستفهام الإنكارى.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ﴾ يحتمل أن تكون معترضة، ويكون قوله تعالى: ﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ ..﴾ متصلا بقوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا﴾ ويحتمل أن تكون غير معترضة، وتكون متصلة بما بعدها.

وعلى الاحتمال الأول مع قراءة الهمزة الواحدة يكون تخريج القول هكذا: ولا تصدقوا مذعنين ومقرين إلا لمن تبع دينكم كراهة أن يُؤتى أحد بمثل ما أوتيتم من كتاب منزل من السماء ومنزلة دينية بين الناس، وكراهة أن يحاجوكم بسبب ذلك الإذعان وذلك الأمر من عند ربكم، وقد اعترض سبحانه وتعالى بين قولهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ﴾ أى إن هداية الله تعالى ملك له وحده يعطيها لمن يشاء، فليست حِكْرا لأحد، ولا أمرا مقصورا على أحد، بل يعطيها من يشاء. وسبب ذلك الاعتراض هو المسارعة ببيان بطلان زعمهم من أنهم ذوو المنزلة الدينية وحدهم، ولبيان أن المنزلة منشؤها الهداية، والهداية طريقها وحدها فلهم أن يتبعوها، ولبيان أنهم بذلك التفاهم على الشر والتواصى على الباطل قد خرجوا عن نطاق الهداية فحقت لغيرهم. وعلى قراءة الهمزتين لا يتغير المؤدى، ويكون تقرير القول هكذا: ولا تذعنوا مصدقين إلا لمن تبع دينكم، أتقرون بذلك لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم.

هذا هو تخريج الآية الكريمة على احتمال أن قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ﴾ جملة معترضة بين متلازمين، أما تخريجها على احتمال أنها متصلة بما يليها فهو هكذا: لا تذعنوا مصدقين إلا لمن تبع دينكم، بذلك ينتهى قولهم، فيرد

---

(١) قرأ ابن كثير المكي بهمزتين على الاستفهام، الثانية منهما مسهلة، وقرأ الباقون بهمزة واحدة على الخبر [النشر في القراءات العشر ج١ ص ٣٦٥، ٣٦٦ - غاية الاختصار في قراءات أئمة الأمصار، ج٢/ ٤٥٠].

الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ﴾ ثم يبين سبحانه وتعالى أن هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم بأن ينزل بينهم وحى السماء كما نزل بينكم، أو يحاجوكم به عند ربكم، و «أو» هنا تكون بمعنى الواو. وعلى قراءة الاستفهام يكون المعنى: أتنكرون أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم.

ذانك الاحتمالان؛ وإنى أميل إلى الاحتمال الأول، وأن تكون الجملة السامية ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ﴾ معترضة، وأن قوله: ﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ من قولهم، وذلك ليستقيم أمر الله بعد ذلك لنبيه بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾ فإنه لا يتضح معناه إلا إذا كان عقب قولهم، ليكون معنى جديد للأمر الثانى بعد الأمر الأول؛ إذ لو كان قوله: ﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ﴾ من كلام الله تعالى المأمور به ما اتضح لنا معنى الأمر الثانى: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾ إلا إذا كان لتكرار هدايته وفضله، والتأسيس أولى من التأكيد.

لقد بين سبحانه بعد ذلك أن الهداية هى فضل من الله تعالى يتفضل به على من يشاء من عباده؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾:

فهداية الله تعالى، والنبوة والرسالة التى تنبعث منها هداية المؤمنين الذين يذعنون للحق؛ ذلك كله فضل من الله تعالى لعباده، فليس حقا عليه لهم، بل هو منه تكرم وعطاء، والمتفضل المتكرم ليس بملزم بالعطاء لأحد، فإن كان قد جعل الرسالة حينا فى بنى إسرائيل فبفضل منه وبرحمة، وليس ذلك بملزم له، ولا بمسوغ لهم بأن يمنعوها عن غيرهم، ويستنكروا أن تكون فى قوم أميين؛ وعليهم أن يذعنوا للحق أينما كان، ومن أى جهة كان النداء به، فالله أعلم حيث يجعل رسالته؛ وليس فوق إرادة الله سبحانه وتعالى إرادة، وليس من حق طائفة من الناس أن تقول نحن أبناء الله وأحباؤه.

ثم بين سبحانه وتعالى سعة فضله وجليل حكمته، وإحاطة علمه، فقال عز من قائل:

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أى أن رحمة الله تعالى واسعة، وفضله عظيم، لا يكون لقبيل دون قبيل، وإن تعدد من يؤتون فضلا لا يغض من قدر الفضل عند غيرهم، فالذين يريدون أن يحتكروا الهداية، أو يحتكروا بينهم وفى أوساطهم رسالة الله إلى أهل الأرض، إنما يُضيِّقون واسعا، ويحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله من غير أن يعود عليهم من هذا الحسد شيء. ووصف سبحانه وتعالى ذاته بأنه واسع مع أن الظاهر سعة فضله؛ لبيان أن شمول فضله شأن من شئونه سبحانه، يظهر آثاره فى خلقه، فما من شيء فى هذا الوجود إلا وهو بفضله سبحانه وتعالى.

وقد اقترن وصف السعة هنا بوصف العلم، للإشارة إلى أن فضله تعالى هو على مقتضى علمه، فهو يعطى من يشاء بمقتضى فضله وعلمه، فما من شيء يكون من الله تعالى لعباده إلا بميزان، وكل شيء عند ربك بمقدار؛ وإنه بمقتضى هذا يختص هذا برحمته، ويختص آخر بنوع آخر؛ ولذا قال سبحانه وتعالى:

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ اختص تستعمل لازمة ومتعدية، فيقال اختصه الله بفضله، ويقال اختص بفضل الله، والله سبحانه وتعالى بمقتضى علمه وحكمته يختص برحمة معينة من رحماته خلقا من خلقه، فقد يقول قائل إن كل من فى الوجود فى رحمة الله تعالى، ما من أحد من خلق الله تعالى إلا ناله نصيب من رحمة الله، ومنهم من يشكر، ومنهم من يكفر، فَلِمَ عبر سبحانه وتعالى بهذا الاختصاص، ولا عام أعم من رحمة الله، ولا عموم إلا فى فضل الله تعالى؟.

والجواب عن ذلك أن الرحمة التى يختص الله تعالى بعض عباده بها هى الرحمة النوعية، فيختص سبحانه هذا بالعلم، وذلك بالمال، وهذا بالجاه، وذلك

بالراحة، وهذا الفريق بالرسالة والهداية، وذلك الفريق بالغلب والسلطان؛ و«كل ميسر لما خُلق له»[١].

فإذا كان بنو إسرائيل وأشباههم قد نَفِسُوا على بنى إسماعيل[٢] أن تكون فيهم النبوة الكبرى التى تختتم بها رسالة السماء إلى الأرض، فذلك مما اختص به سبحانه وتعالى بعض عباده بالرحمة، وليس لأحد أن يعترض على فعل الله، فإن فضله على من اختصه عميم؛ وفضله أيضا على من لم يمنحه هذا النوع من الرحمة عظيم؛ ولذا ختم سبحانه الآية الكريمة بقوله: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ فلا عظمة تساوى عظمة فضل الله تعالى على خلقه، فالاختصاص النوعى لبعض الرحمات لا يعارضه عموم الفضل على خلقه، ولا عظمة هذا الفضل.

اللهم مُنَّ علينا بتوفيقك لنعرف فضل نعمتك، ونشكرك ولا نكفرك، وتب علينا، إنك أنت التواب الرحيم.

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

(١) رواه البخاري: التوحيد - قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ (٦٩٩٦)، ومسلم: القدر - كيفية خلق الآدمي في بطن أمه (٤٧٨٩).

(٢) أى ضنوا عليهم. الصحّاح.

بين الله سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة استهانة بعض أهل الكتاب الذين عاصروا النبى ﷺ بالحق وتلبيسهم الحق بالباطل، وكذبهم وافتراءهم على النبيين وعلى رأسهم أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، ثم بين تعصبهم، وحرصهم على أن يظهروا بين الناس بأن الهداية فى حوزتهم وحدهم، وأن الناس ما عداهم دونهم، ثم ذكر ما يتواَصَوْن به فيما بينهم من النفاق بأن يؤمنوا أول النهار ويكفروا آخره، لعلهم يفسدون بذلك عقائد المؤمنين؛ وهكذا مما يدل على فساد اعتقادهم وعدم إذعانهم للحق، وكذبهم فيما يدَّعون.

والكذب والخيانة توْأم، كما أن الصدق والأمانة توْأم، وفساد النفس يترتب عليه فساد العمل، وعدم الإذعان للحق فى الاعتقاد يترتب عليه عدم الإذعان للحق فى المادة، فإذا كان بعض أهل الكتاب قد كان منهم ذلك النفاق الدينى، فإنهم قد بدت منهم الخيانة المادية، ولذا قال سبحانه:

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ﴾ قسمان متقابلان أحدهما يبلغ الغاية من الأمانة، فيعطيها عند طلبها مهما تكن قيمتها؛ ومهما تكن نفاستها، وعبر عن الكثرة بالقنطار من الذهب، ولم يذكر كونه من الذهب؛ لأنه مفهوم من السياق؛ لأن الدينار لا يكون إلا من الذهب، فلا بد أن يكون القنطار الذى يكون فى يد الأمين من الذهب، وهذا القسم الذى يكون على هذا القدر من الأمانة هو الذى يجيب داعى الحق ويؤمن به إذا دُعِى إليه؛ لأن التسليم بالحق فى الماديات التى تصورها الأمانة لا ينشأ إلا من ينبوع النفس التى تؤمن بالحق فى المعنويات؛ بل إن هذا فى الحق ينتهى إلى معنى الأمانة؛ لأن نصر الحق والإذعان له بعد قيام الدليل عليه نوع من الأمانة، إذ إن الله سبحانه أودعنا هذه القوى المدركة لنجعلها للحق وللنفع، فذو العلم عليه أن يؤدى أمانة العلم، وذو المال عليه أن يؤدى أمانة المال، ومن قام بين يديه الدليل على صدق دعوة إلى الحق لا يكابر ولا يمارى، وكانت الأمانة أن يعلن تلك الحقيقة ويناصرها ويؤيدها، ولذلك قال كثيرون من العلماء: إن الأمانة

التى حملها الله للإنسان بمقتضى الفطرة هى إدراكه لمعنى التكليفات الإنسانية والإلهية وقيامه بحقها، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب].

هذا هو القسم الأول، وقد قال العلماء إنهم أهل الكتاب الذين آمنوا برسالة محمد ﷺ، كعبد الله بن سلام، وغيره من اليهود الذين سارعوا إلى الإسلام، وكذلك الشأن فى كل كتابى علم الحق فى رسالة النبى ﷺ، وأذعن له؛ لأنه يكون ممن يؤدى الأمانة.

والقسم الثانى هو الذى لا يؤدى الأمانة، وهو فى مقابل الأول؛ لأن الأول فى السماك الأعزل، وهذا فى الحضيض الأوهد. وصور الله سبحانه الفرق بينهما ذلك التصوير الحكيم البين الواضح بأن الأول لو ائتمن على قنطار من ذهب لأداه، والثانى إن ائتمن على دينار لا يؤده إلا بالملازمة الدائمة، والتتبع والإلحاف الشديد، وعبر الله سبحانه وتعالى عن هذه الملازمة بقوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ أى إلا إذا استمررت مطالبا له مصمما على أن يؤدى مشرفا عليه فى غدوه ورواحه. ودام معناها استمر، وقائما معناها ملازما متتبعا؛ ذلك لأن قام فى استعمال القرآن الكريم لها تكون كما قال الراغب فى مفرداته: «على أضرُب، قيام بالشخص إما بتسخير أو اختيار، وقيام للشئ وهو المراعاة للشيء، والحفظ له، وقيام هو بمعنى العزم على الشيء . . ومن المراعاة للشيء قوله تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ... ﴿٨﴾﴾ [المائدة] وقوله تعالى: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ ... ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران] وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ... ﴿٣٣﴾﴾ [الرعد] وقوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ... ﴿١١٣﴾﴾ [آل عمران] وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ أى ثابتا على طلبه.


محمد أبو زهرة
الإمام الجليل
الإمام الشيخ محمد أبو زهرة غنى عن التعريف، فقد أثرى المكتبة العربية بموسوعته الإسلامية الشاملة، التى كان ختامها ذلك التفسير العصرى للقرآن الكريم.